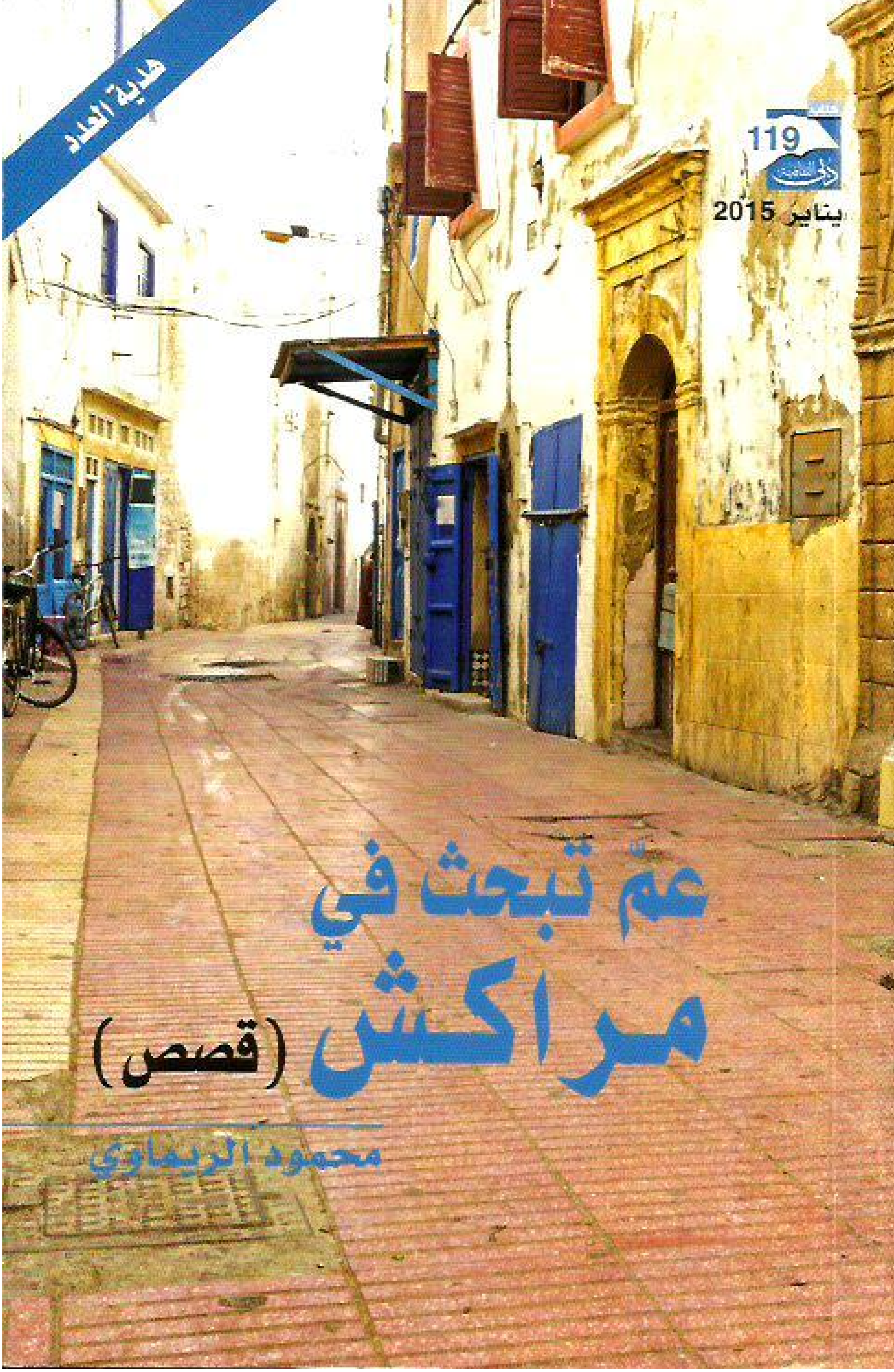

هدية العدد

دبي الثقافية 119
يناير 2015

عمّ تبحث في مراكش (قصص)

محمود الريماوي

كتاب
دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار 119

محمود الريماوي

عمّ تبحث في مراكش (قصص)

■ الطبعة الأولى، يناير ٢٠١٥
■ حقوق الطبع محفوظة لدار الصدى

كتاب دبي الثقافية

المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مدير التحرير
نواف يونس

متابعة
يحيى البطاط
محمد غبريس

المدير الفني
أيمن رمسيس

الإخراج والتنفيذ
محمد سمير

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحرير والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩ / ٩٧١٤+
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/٩٧١٢+

الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب:
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/٩٧١٤+

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠ / ٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/٩٧١٤+

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

قراءنا الأعزاء، يسعدنا ويشرفنا في مجلة «دبي الثقافية» أن نتواصل معكم من خلال هذا الإصدار «عمّ تبحث في مراكش» للكاتب والقاص محمود الريماوي، محاولين التواصل مع جميع قراء مجلتنا على رغم الصعوبات التي يمر بها عالمنا العربي وهو يعيش هذه المرحلة الجديدة من تاريخه.

وها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألو جهداً في إضافة المزيد، وكل ما نتمناه من قرائنا الأعزاء هو التواصل معنا، وإتحافنا بآرائهم

وملاحظاتهم حول هذه الإصدارات التي نقصد بها خدمة الثقافة العربية، والتعريف برموزها، راجين إيجاد العذر لنا عند وجود أي تقصير.

والله من وراء القصد

عمّ تبحث في مراكش

(قصص)

محمود الريماوي

أنت لا تذهب (حين تذهب) إلى مراكش..
أنت تعود إليها.

(م.ر)

القصص مكتوبة في عمّان خلال العامين ٢٠١٢ و٢٠١٤

قصص مراكش

كتاب
119
الإصدار «   » يناير ٢٠١٥

عمّ تبحث في مراكش

– عمّ تبحث في ديارنا؟

– عن فتى مراكشي.

– ما اسمه؟

– محمود.

– فيم بحثُك أنت الكهل عن فتى؟

– أعرفه فتىً.

..لم يعد فتى إذاً يا صاحِ! لعله كهل مثلك.

– أخبرُه فتىً.. صبياً تسابق سيقانه الريح، له عينا جندب صغيرتان صافيتان. هو أول الأصدقاء.

– أي بلاد حملتك إلينا؟

– بلاد التين والزيتون.

– القدس.. القدس المباركة؟

– بيت المقدس وأكنافها، أنا من الأكناف.

– لعلك رجل صالح من أرض مباركة.

– أنا من عامة الناس، بلا شمائل أو سجايا تُذكر.

– هيا اجلس.. التقط أنفاسك، ورطّب فمك بشاي أخضر.

بعد تبادل التحايا، والمحادثة وقوفاً.. المحادثة الثنائية الفخمة التي زِيد في تفخيمها لغايات السرد، وفي جلستهما بعدئذ أمام حانوت العاديّات، تحدث المترحّل لمضيفه الذي يُجايله عمراً، عن صداقة نشأت بينه وبين ابن صف مدرسته، وابن حارته محمود المغربي قبل أزيد من خمسين عاماً في أقدم مدن العالم: أريحا. صبيان صغيران في سن العاشرة يهْنَآن باكتشاف العالم معاً، ويمضيان جنباً إلى جنب إلى مدرسة البحتري، ويؤوبان معاً. صداقة مستجدة، وليس لها إلا أن تكون حديثة بحُكم السن، ومع أول إدراك لهما لارتباط حرٍّ يُدعى «صداقة». فما إن حلّ أبو محمود المغربي موظفاً في البريد، حتى التحق ابنه محمود بالمدرسة الابتدائية وتصادق مع سمِيِّه، وتعاهدا على الإخلاص، وتشاطرا الرغبة المبكرة بالطواف في أرجاء الدنيا..

مكتب البريد يضم هذا الموظف ومديره فقط، إضافة إلى عامل مقسم الهاتف، والعامل مولجٌ بتلقّي المكالمات واستقبالها وتوزيعها على المشتركين المعدودين، وله أن يتسمّع بأريحية إلى ما شاء منها. أما موظف البريد –ويُكنّى أبو أحمد لا «أبو محمود» فيستقبل الرسائل يتفحص أغلفتها ويروز أوزانها، ويمنح صاحبها طابعاً أو طابعين بثمن معلوم مُثبت على

الطابع، يلصقها المرسل على المغلف فيضمن أن تمشي رسالته مشياً سريعاً أو حتى تطير إلى غايتها.

تلك أيام من مطلع العام ١٩٦٠ الميلادي. فأمضيتُ -يقول المترحل- مع سميّي محمود سنتَي الصف الرابع والخامس. ولم تنقض السنة الأخيرة حتى حلّت بمحمود وعائلته مأساة أليمة، فشقيقه الأكبر منه بسنتين (أحمد) صدمته شاحنة رعناء (على قلّة شاحنات تلك الأيام) ومات من فوره. كنت أرى أحمد شقيق صديقي، وأتفاداه كما هو شأن الفتية الصغار حيال من يكبرونهم ولو بسنة واحدة، وقد تألمت لموته بسبب الميتة الشنيعة التي قضى بها، ثم لإدراكي المُستجد أن الفتية الأكبر منا.. الأقوى منا، هم عُرضة للموت. بقي صديقي محمود ابناً لأبٍ وأم، ولكن بلا أخ ولا أخت. من يومها واظب أبو محمود على الذهاب بابنه الوحيد إلى المدرسة قبل الالتحاق بالبريد، فيما تتكفل أمه بإعادته منها، وهو ما ضاق به الصبي، وجلب له الحَرج أمام أترابه، غير أن ضيقه ظل بلا مفعول أمام تعلّق الوالدين بـ «قرّة العين» الابن الباقي. لقد حُرِمتُ من رفقة الطريق معه، وإن بقينا نُمضي سحابة الوقت معاً في غرفة الصف وساحة المدرسة.

«محمود المغربي أم المراكشي؟»، يسأله أصحابه التلامذة

فيجيب: «المغربي». «لكن اسم تلك البلاد مراكش، وليس المغرب»، يقولون له. فيجيبهم: «إنه مغربي من هذه البلاد، مثلكم». فيتفاصح أطولهم: «ما دمت من هذه البلاد فلِمَ اسمُك مغربي؟»، أتدخل وأقول لهم إنه اسم عائلة، لقب عائلي، مراكش بعيدة.. ثم تنتابني هيئة معلم فأهتف: «أين إبراهيم حجازي.. أنت هنا؟ تعال يا إبراهيم». يتقدم إبراهيم بشعره الأملس الطويل وبشرته البيضاء المُحمرّة، وأسأله: «من أين أنت؟». «من صفد»، يجيب. «وهل صفد في الحجاز؟»، يُعقّب متشاطر ويسأل: «إذاً اسم عائلتك يجب أن يكون: صفدي، وليس حجازي». وإبراهيم لا يحير جواباً، فما شأنه باسمه.. هل هو من أسمى نفسه بهذا الاسم؟ في تلك الأثناء ظل الأصدقاء يفسرون صداقتنا بسبب وحيد، هو أننا نحمل الاسم نفسه: «محمود». وهو تفسير يرضينا، فالأصدقاء اليافعون يروق لهم أن يتشابهوا في كل شيء، بما في ذلك اسم كل منهما.

المضيف المستمع أطربه البوح المتدفق بنبرة مشرقية لتفاصيل طفولية، على أن خيوط البلدان والخرائط والأزمان اشتبكت في خاطره الموزّع بين الاستماع للضيف، وبين التلفّت بين الحين والحين إلى داخل حانوته متتبعاً يقظة عامله، ودخول الزبائن وخروجهم. وقد ضحك لضيفه قائلاً بكلمات أغلبها فصيحة:

«إنها محض ذكريات طفولة سعيدة، وإنها أيام قديمة كبُر الصغار فيها، وتفرّقت بهم السّبُل، تزوجوا وأنجبوا مثلي ومثلك».. وسأل، وقد غشي الشرود ملامحه: «هل يحوم في رأسك أن لصديق طفولتك قريناً أو وجوداً في بلادنا؟»، وأشفع سؤاله بابتسامة حانية درءاً لتحرّج الضيف.

المترحّل باسطاً كفيه ومُغضياً بصره، وبعد برهة تردُّدٍ، نفى بهزّة من رأسه دون أن يفلح بها في كتم تردده، وهو ما زاد في حيرة مضيفه، ثم إن المترحل اعتذر لأنه شغل وقت مضيفه، وصرفه عن تجارته، وما كان إلا أن نهض وإن على تثاقل، فاتفق التاجر معه على اللقيا عقب صلاة العشاء في المقهى القريبة المجاورة للجامع. «تعرفها؟»، أومأ المترحل برأسه إيماءة إيجاب، وخرج متأسفاً وخجلاً لأنه لم يشترِ شيئاً من دكان الرجل المضياف.

لم يرغب حينها بشراء شيء من المعروضات الفاتنة، أو قُل إن هذا ليس مما أشغل باله، فبوسعه الشراء لاحقاً على عَجَل (وتلك طريقته في الشراء) بما يتيسر معه من نقود.. لم يشترِ شيئاً، ولربما لم «يشْتَرِ» احترام الرجل، ولعل الرجل ظنّه مخبولاً تاهت به الدروب الطويلة حتى وصل وصول عشواء إلى الديار

المغربية. على أن المترحل - والحقّ- ليس جوّاباً تائهاً. فقد سبق أن زار هذه البلاد في رحلة سياحية قبل عشرة أعوام، فدخلت في قلبه ولم تبارحه. وها هو يكرر الزيارة لا للسياحة، بل كي يهنأ بالطواف والفرجة على تجليات الروحانيات والماديات سواء بسواء مما تحفل به هذه البلاد. لكنه ما إن حطّ في مطار الملك محمد الخامس في «البيضا»، حتى خفق قلبه بذكر صديق الطفولة، وإذا بالشوق يتأجج في نفسه نحو سميّه «محمود.. المغربي». وما دام قد وصل إلى ديار صديقه، فمن مقتضى الوفاء البحث أو السؤال عنه، وبخاصة بعدما غفل عن استذكاره في الزيارة الأولى.

بين حشد من تلامذة المدرسة يتقدمهم معلمون وفرق الكشافة استقبل الفتى محمود مع صديقه محمود المغربي الملك محمداً الخامس مصحوباً بالملك حسين في مدخل مدينة أريحا ليس بعيداً عن المُستنبت الحكومي، وكان الضيف الجليل في طريقه بالسيارة الملكية السوداء من عمّان إلى القدس مروراً بأريحا. ولدهشته، فقد لاحظ الفتى أن أم محمود وأباه قد تركا ما هما فيه من أشغال، وحضرا منفردين للاستقبال، ولم ينشغلا كجاري العادة بابنهما وقد صادفاه مع زملائه ومعلميه.

وصل موكب محمد الخامس وبدا الملكُ الضيف في وقفته داخل السيارة المكشوفة صافي الملامح يشعّ البِشْر والطمأنينة من قسماته اللطيفة معتمراً قفطانه(أو سلهامه) الوطني، وأخذت الأم تصفق متهللة وانتابها تأثر شديد حتى غلبها البكاء، وشقّ الأب الصفوف وتقدم للسلام على ملك مراكش الذي عاد من منفاه في مدغشقر إلى عرش أجداده، وأوشك الأب مادّاً ذراعه على مصافحة الضيف الذي بشّ له، لكن الحرس لم يُمكّن الأب من بلوغ مبتغاه، فأُسقط في يده كسيفاً حزيناً. وهو ما لاحظه الابن محمود وكاد يبكي ويلعن وهو يرى أباه بلا حول ولا قوة. ولم يلبث الموكب أن شق طريقه مبتعداً وسط المدينة، كي يلاقي بالتتابع جموعاً آخرين من حشد المستقبلين.

بعد شهرين ومع انتهاء العام الدراسي، وقد ازداد سطوع شمس أريحا في يونيو/ حزيران، أبلغ محمود المغربي صديقه أنهم سيرحلون جميعهم هو وأمه وأبوه «إلى أين؟». «إلى المغرب»، أجاب «هل تحب ذلك البلد؟»، أجاب الفتى: «لا أعرف. لكن أبي أخبرني أنه بلد أجدادنا». في واقع الحال إنه بمناسبة الزيارة التي أداها الملك محمد الخامس إلى عمّان والقدس، فقد سهّلت سفارة المغرب عودة من يشاء من ذوي الأصول المغربية إلى الوطن الأم وطن الأسلاف، وقد وُعد الفتى بالعودة قريباً إلى

أريحا فهو يحبّها حبّاً جماً، حتى إنه لا يحب سواها. وبالفعل بدأوا التحضير للعودة، ولم يكن بحوزتهم الكثير ليبيعوه، فالبيت الذي يقطنونه مستأجر، وأثاثه أثاث موظف بسيط، ولم تكن الكهربائيات دخلت المنازل بعد. وقيل إن الأم على استجابتها الأكيدة لرغبة بعلها بالسفر ومحبتها للملك محمد الخامس، مانعت في مقتبل الأمر.. فكيف نترك تراب أحمد؟ وقيل إن ذويها، كل ذويها في فلسطين، فكيف تفارقهم كلهم؟ لكنهم سافروا. سافروا كما تسافر الأيام التي لا ترجع أبداً. الفتى محمود المقدسي -وهو المترحل الحالي- أخبرهُ إخوته الكبار آنذاك أن المغرب بعيد جداً، وأنه أبعد بلد عربي، وتسميته «المغرب الأقصى» ليست بلا سبب. وهو ما عزّ على الفتى، إذ كان يرجو أن يرحل صديقه -إن كان لا بد من رحيل- إلى بلد قريب، لا إلى أبعد بلد...

بهذا حدّث مضيفه التاجر في المقهى قائلاً إن روحه تهفو للقاء صديق الصبا وأقلّه سماع أخباره. التاجر دمعت عيناه.. وسأل الضيف إن كان يتذكر اسم المدينة التي ارتحل اليها صديقه، فأجابه بأنه لم يسْعَ أبداً لسؤال صديق الطفولة عن اسم المدينة، فما حاجته آنذاك لاسمها: هل سيشُد الطفل

الرحال إليها؟ واستذكر الضيف كيف أن الفتى بعد مضي شهر فشهرين ثم سنة، قد لام في نفسه أبا صديقه موظف البريد الخبير في الرسائل.. لامه لوماً شديداً لأنه لم يُعنْ ابنه على تدبيج وتطيير ولو رسالة واحدة إلى صديقه الباقي في أريحا. وسأل المضيفُ ضيفه إن كان حال أريحا جيدا هذه الأيام والإقامة فيها طيبة، فأنبأه الضيف أنه فارقها قبل ٤٤ عاماً حين أطبق المحتلون الإسرائيليون عليها، وأنه لم يطأ ترابها منذئذ. «هل هي بعيدة عن القدس؟.» «لا ٢٧ كيلومتراَ فقط عبر طريق جبلية».

ثم طاف بهما الحديث في مطارح مهنية وعائلية وسياسية، حتى قال المضيف لضيفه وهما منقطعان عما حولهما من رواد المقهى: «إن المغربي محض كنية لبلد صديقك، وليس اسماً لعائلة، وإنه تمت إضافتها لصديقك وعائلته في بلدكم للتدليل على بلده الأصلي، ولا بد أنهم استعادوا اسم العائلة الحقيقي ما إن عادوا إلى وطن الأجداد، والله وحده يعلم بهذا الاسم. وعبثاً سؤالك عنه هنا والآن». وقد وقعت العبارة موقعاً أليماً في نفس المترحل، فقد اشتمّ فيها تخطئةً وتقريعاً، وأفاد أنه يُفرّج عن ذكريات قديمة، عن شوق دفين، ولا يسأل.

متجاوزاً ما سمعه قال المضيف: إن أباه أمضى سواد حياته

تاجر قماش في مراكش ولم يبارحها، أما جدّه حسن فزار القدس زمن العثمانيين، وعاد منها ودُفن هنا.. «وأنا فزت بزيارة الديار المقدسة قبل ثلاثين من السنين، ولم أعرّج على القدس المسلوبة، وشوقي للقِبلة الأولى وحتى لحارة المغاربة في المدينة العتيقة لا تطفئه الأيـام. شوقٌ نشأ منذ زيارة الملك محمد الخامس للقدس، وقد تمنيتُ أنا الطفل يومها لو اصطحبني معه. لأكن صديقاً لك، وإن في منزلة دون منزلة صديقك الأول». وذكر أنه يَكثُر في المغرب من يحملون اسم «محمد»، فهو الأكثر شيوعاً، ثم اسم «أحمد..» وتصادفه بكثرة، وهو اسم المرحوم شقيقي الأكبر، أما (محمود) فقلّما يتسمّى به أحد، واسمي مع هذا ولحُسن الطالع: محمود. الحاج محمود. ضيفه ارتجّ عليه، وهتف بحشرجة: عاشت الأسامي. وأخذ يجيل النظر في سحنته ويتفقد هيئته كأنما يستذكر رؤية له من قبل، والحاج محمود يضحك عن أسنان بيضاء مصفوفة ولثّة وردية، ويناجي نفسه قبل مخاطبة ضيفه: عاشت الأرواح المُجنّدة، تراني هنا بينما كثيرٌ مني.. من روحي يهيم في دروب بيت المقدس، وفي أكنافها، نحن في الترحال (كِيف كِيف) يا أخا العرب.

نصف دقيقة

إلى إبراهيم أولحيان

يجلس في الصف الأمامي من المقهى على مبعدة مترين من رصيف المشاة.عرفه الزائر الراوي ما إن لمحه. بدا أصغر من سنّه بنحو عشر سنوات، ولون سحنته رمادي على أبيض بلون ملابسه غير المتأنقة، ويشبه صُوره بعض الشبه مع محاكاة لهيئة شبح مسرحي شيكسبيري. تقدّمنا منه، وقدّمني صديقي إليه ساعة الغروب فصافحني بتهذيب ونظرات غائمة، وكذلك فعل رفيقه ضخم البنية. جلسنا وراءهما في الصف الثاني من المقاعد. حين لمحته وحتى خلال المصافحة لاحظتُه غارقاً في أفكاره.. ذكرياته، سوانحه، والآن في جلستي وراءه فإن جذعه يبدو منحدراً للأسفل، ورأسه غارقاً في رقبته، وقامته الطويلة غاطسة في ملابسه الشتوية، كمن يستطيب الغرق.. يستدفئ به أمام الأنسام الباردة لنهاية الخريف، أو أنه لا يبالي به. وفيما ارتشفتُ الشاي الأخضر بهناء، وتبادلت مع صديقي الحديث حول المقهى والداخلين إليه نساء ورجالاً من شتى الأعمار ممن يبثّون رسائل مختلطة، وحول ما يحدث في الساحة، ساحة جامع الفنا بمراكش أمامنا، فقد اعتصم

هو ورفيقه بالصمت. لم يتبادلا في واقع الأمر كلمة واحدة طيلة أربعين دقيقة وأكثر، ولا التفت أحدهما للآخر، ربما فعلا هذا كثيراً قبل مجيئنا، واستنفدا الحديث المخصص لهذه الجلسة. لم أبُح بملاحظتي لصديقي. وددتُ رؤية الرجل بعينيّ، والخروج بانطباعي الخاص دونما استعانة بصديقي الذكي، الذي يعرفه معرفة جيدة.

لا تسرّني مراقبتي لغيري، بيد أن الموقف حتّم ما يحدث. فأنا أراه لأول مرة، وربما (مدفوعاً بنزعتي التشاؤمية) لن أراه مرة ثانية، وأية مراقبة هذه من بُعد ومن الخلف.. سمعت عنه وقرأت له الكثير، وقد فوجئتُ بوجوده، واجتهدت أن أبدو طبيعياً أمامه لدى المصافحة، وفي جلستي وراءه في الصف الثاني للمقهى الذي علمت أنه يواظب على ارتياده. وقد ساعدني هو دون قصد فهيئتي لم تعْنِ له شيئاً البتّة، وكذلك اسمي. حتى أنه لم يعمد إلى مجاملة صديقي (ذلك مجرد أسلوب، وليس موقفاً سلبياً)، فهل كان سيفعل مع طارئ غريب الهيئة؟.

لكم أتوجس ممن يطيلون الصمت في الأمكنة العامة، وقد حدث ابتداء من مخافتنا التسبب بإزعاجه أن انتقلتْ عدوى الصمت تدريجياً إلينا، صديقي وأنا. واستعنّا بطلب فنجان قهوة كحلاء لكلّ منا لمشاغلة الصمت الذي حلّ ضيفاً صارماً.

وأخذتُ من ناحيتي أراقب حلقة حكواتي غير بعيدة في الساحة إنه يرتجل التمثيل، التشخيص في كل مرة يحكي فيها، كما أعلمني صديقي قبل دخولنا المكان. لكم تمنيت أن أطلق طاقتي التمثيلية الحبيسة، بيد أنني محض متفرج يُخفق في المعاينة، وينأى خلال الفرجة بعيداً ويسرح في الملكوت: الناسوت واللاهوت. بينما أفراد الحلقات لا يرتضون الجلوس متفرجين، فلا يتركون لأقرانهم وحدهم مهنة الجسد المتكلم والمُشَخِصّ. أتعس أطفال الحي والمدرسة، وأدعاهم للشفقة هم من يُحكم عليهم بدور المتفرج في أية لعبة ناطقة، أو حركية. الفرجة عقاب لهم وعليهم. وجدتُ بهذا أمراً مشتركاً بيننا، فالرجل أمامي ثابت لا يريم متجمدٌ في جلسته، ورفيقه يُشايعه ويفعل مثله. حتى أنه زاهد في الحِسّيات الأوليّة: لا يتناول مشروباً ولا يدخن مثلي، وحسناً يفعل.

للأسف، كان لا بد من المغادرة. اقترح ذلك صديقي ووافقته على الضد من رغبتي في مواصلة الجلوس لمجرد الجلوس، وترقّب ماذا سيفعل الرجل المُهم.

غادرْنا، حييّناه فأومأ برأسه.

وأنبأني صديقي إبراهيم لدى خروجنا أن الرجل لم يعد غريباً أجنبياً، فقد امتدّت إقامته الدائمة هنا منذ سنة ١٩٧٥، سألته

في المقهى؟ أجاب: لا في البلاد ووصفَه بأنه «يتحدث الدارجة مثلنا». فصارحته: إنه يصمُت مثل صمت أهل البلاد، ولصمته صوت يكاد يكون مسموعاً.

حانت مني ولم نكن قد ابتعدنا كثيراً التفاتة إلى الوراء، إليهما، فإذا هما يتبادلان حديثاً يكاد يكون غاضباً، قلت لإبراهيم: انظُر. نظر، واستغرب لكن بدرجة أقل من استغرابي. بدا المشهد أشبه بخلاف عائلي، وأنهما انتظرا مغادرتنا كي ينفجرا ببعضهما. ووصف صديقي الرجل المُهم خوان بأنه نبيلٌ ومزاجي، وما يحدث ليس خلافاً علنياً بل حماسة طارئة عليه في تبادل الحديث مع رفيقه الذي جاراه في حماسته. فأخذت على نفسي سوء الظن، وتمنيت لو أعود إلى المقهى. لم يكن ذلك ممكناً. سأبدو لو فعلت فضولياً وكذلك صديقي، وقد ينسحب الرجل المُهِم ويغادر مع رفيقه ما إن ندخل المكان.

في اليوم التالي أخبرني إبراهيم أن خوان نهض وانضم إلى حلقة حكواتي وجاراه في الارتجال، وأن رفيقه حاول عبثاً ثنيه عن الانضمام مخافة أن يأخذه متفرجون عابثون مأخذ هزء، وأنه ارتجل دور رجلٍ قرر التوقف عن الفرجة، ومنازعة الحكواتي على دوره، وقد شجعه الأخير على أداء الدور وأعانه عليه، وأن نجاحه ولو بعض نجاح شجعه على الانتقال إلى

حلقة أخرى غير بعيدة، وهناك نشب سجال أدائي ارتجالي بينه وبين حكواتي تلك الحلقة، حين تقاسما دور قاض يختتم حياته المهنية بالانتحار خنقاً بيديه، وقد استيقظ ضميره بالتصريح بأن أحكامه ومحاكماته على مدى أربعين عاماً قلّما كانت نزيهة، مع سرد أمثلة منها حكمه بالسجن لأسبوع على حمار عقاباً للحيوان على التبول في الشارع، وحكمه على أرملة بعدم زيارة قبر بعلها خضوعاً لنزوات ذوي المرحوم المتنفذين، وحكمه على رجل مُسن بأن يروي أربعين نكتة أمام المحكمة قبل إطلاق سراحه، للبرهنة على أنه سيفعل الأمر نفسه في البيت مع زوجته التي اشتكت من دوام تجهمه، وكان الفوز في الدور من نصيب الحكواتي الذي ربما أدى الدور من قبل مراتٍ ومرات، والذي بِحُكم كونه من عامة الناس يخْبر جيداً حكايا الظالمين والمظلومين، فقد واصل الأداء بصوته الرخيم وقسمات وجهه الناطقة، وبأطرافه المطواعة، فيما صاحبنا أفرغ ما لديه في بضع دقائق، وتحول إلى متفرج مُتصنّم ولكن داخل الحلقة، وأنى له أن ينجح في أداء الدور وهو يراقب نفسه ويراها وهي تمثل، وأن الرجل المُهم الديمقراطي كابر على نفسه، وبدا خلافاً لما يعتمل في نفسه راضياً بما جرى، بينما اغتمّ رفيقه غماً شديداً، وقرّعه بهمسٍ مسموع فيما هما

يغادران، وتكاد تتوزع بهما الدروب: ما حاجة كاتب كبير لأن يكون ممثلاً هاوياً في الثمانين من عمره؟ ولم يُجبه الرجل فقد كان مُجهداً يجفف عرق الانفعال عن جبينه، وغارقاً في بئر نفسه.

سرد صديقي ما سرده، وقد سمعتُ ما سمعت بهدوء وبغير اندهاش، فقد توقعتُ أن يلتقط الرجل بمَعونة قوى خفية حليفة الرسالة ما إن تصافحنا، وأن يخوض التجربة بنفسه وعنّي وقد فعل، فهو لا يرتضي دور المتفرج، كما لا يسعهُ أبداً الاندماج الكامل في أداءِ تمثيلي، فأنا أعرف ذات نفسي المشطورة، وقد وجدتُ نظيراً فورياً لها في الاندفاعة المرتجلة للكاتب خوان. لم أبُح بذلك لصديقي جرياً على طبعي المُتكتّم، وانتظرتُ حتى أدوّنه لقارىء يتشكك في رفع الحقيقة إلى مرتبة الخيال.

واكتفى إبراهيم بأن نظر لي نظرة متوجسة، ثم قال من تحت نظراته بنبرة يمتزج فيها التحذير بالدُّعابة: لا حاجة بك للالتقاء بالرجل، لقاء نصف الدقيقة بينكما كان كافياً.

فتْحُ سيرةِ ملهىً مغلق

إلى سعد سرحان

الملهى بجوار مدخل الفندق يظهر منه ليلاً ونهاراً بابٌ بحلقات معدنية هندسية سوداء، ومُضلّعة تُحكِمُ إغلاقه، ويمكن من بُعْد ملاحظة أتربةٍ ونفاياتٍ خفيفة يذروها الهواء بمحاذاة الباب الذي صار جداراً.

رواد الفندق من مختلف الأعمار يصعدون درجات المدخل، وأنظارهم مشدودة إلى الجهة اليمنى حيث مدخل الملهى. أما رواد الملهى فيحومون حوله غير مصدقين إغلاقه منذ نحو سنة، وعلى أمل أن تكون معجزة قد تحققت وانقشع الكابوس، وأعاد الملهى فتح أبوابه لمن يستهويهم الأنس والسهر، وبعضهم يقف أمامه على زاوية الشارع مديراً له ظهره تفادياً لرؤية مشهد الباب المُحكم الإغلاق على فرحٍ موؤد. لكن بعضهم يشيحون بأبصارهم عنه، لأنه لم تعُد بهم كبيرُ حاجة له: فإما أنهم تزوجوا حديثاً، أو وقعوا في الحب، أو انصرفوا عن اللهو وأخذوا حياتهم مأخذ جدّ وكدّ.

نزيل الفندق لا يعرف شيئاً عن الملهى أيام كان مفتوحاً طيلة ساعات الليل، عرف بالأمر من أصدقاء ذوي مزاج «أزرق» في

مراكش. خبر إغلاقه يتداوله هؤلاء بأسف، وبعضهم بحسرة، وأحدهم بشماتة (نكاية بأصدقائه، لا مقتاً للفن)، ويسمعهم النزيل فيشعر بتقدّمه المطرد في السن، وبأنه تأخر عن مواسم الحياة وقد بدأتْ وازدهرت وتقضّت في مكان آخر بعيد، فيما هو غائب عن السمع والبصر. النزيل ليس مراكشياً ولا سليل هذي البلاد، فما شأنه بما يجرى لملاعب الطرب فيها؟ الصحيح أنه ما إن يحِلّ ببلد حتى تتوطن ألفة البلد لديه، وقد زار هذه الديار بلهفة ووله غير مرة..

نادل الفندق المهذب تضيء وجهه سُمرةٌ ريفية يُبلغ النزيل الغريب برنّة أسى، أن صالة الفندق لطالما عجّت بالحياة مثل خلية نحل أيام الملهى.. روادٌ يتلاقون ويمكثون بعض الوقت في البهو ساعات المساء قبيل الانتقال إلى الملهى «المقهى شقيق الملهى يا صاحبي، فإذا غاب شقيقٌ ضاع شقيقه». والصالة صالة الفندق تشهد ليلاً ونهاراً حركة قليلة وبطيئة بالفعل، ولطالما جلس النزيل فيها منفرداً بصحبة قهوة باردة يتصفح اللاب توب. النزيل بلا ذكريات هنا، ويكاد يشعر بالحرج لكونه محروماً من الأسى العاطفي على ملهى زرياب الذي أغلق أبوابه. جاء الزائر فإذا به يشهد على ستارة مُسدلة وباب مغلق.

النزيل المولع بتعليل الأشياء مدفوعاً بالفضول ومحبّة الأشياء الغاربة، والعازف عن المتع السياحية، استثمر وجوده لعشرة أيام في تقصي ما حدث، فدوّن خلاصة ما وقع عليه، ودفع بها إلى رهط من أصدقاء بينهم السارد الراوي غير العليم. هي ذي الخلاصة:

«لماذا أغلقوه.. لماذا أغلق الملهى أبوابه؟ (ثمة باب خلفي لدخول وخروج الفنانين والمالكين، وآخر جانبي يستخدمه العاملون في المطبخ، إضافة إلى الباب الرئيسي الأمامي)..

رواية شائعة أفادت أن زبائن أشقياء دأبوا في الآونة الأخيرة من عُمر الملهى على بيع مواد ممنوعة فيه، حتى كاد يصبح المكان مقراً لهم، فأقدمت السلطات على غلق «المقر» قطعاً للطريق عليهم.

رواية ثانية ليست أقل شيوعاً زعمت أن معركة حامية نشبت بين عشرات الزبائن ذات ليلة ليلاء، أسفرت عن تطاير زجاجات وكؤوس ومنافض (مرمدات)، وتحطيم أثاث، وإصابة عديدين بينهم مطرب شاب لم يكن طرفاً في العراك، وقد هجر الغناء وأهله ومجالسه بعدئذ.

رواية ثالثة شقت طريقها إلى الأسماع ادّعى أصحابها أن الأمر أبسط «مما تظنون»، فكل ما في الأمر أن الملهى راكَمَ في

السنوات الأخيرة خسائر ثقيلة رغم الإقبال الكثيف عليه، ورغم «نجاحه الفني» وذلك لضعف إدارته، فأوصدت ريحُ الخسارة العاتية بابه إيصاداً عنيفاً صمّ الآذان، وأرجف الأفئدة.

بينما ردّد كُثُر رواية رابعة أطول من سابقاتها وأوفر في تفاصيلها، ويُعزى فيها الأمر لابن صاحب الملهى، وهذا شاب محتشم حييّ ومقدامٌ في الوقت ذاته لم تعرف قدماه طريقاً إلى هذا المكان، وتخفق روحُ «مثالية بين أعطافه خفقاً شديداً. لم يحتفل الشاب بعيد ميلاده السابع عشر في السنة الماضية (الفارطة) إذ يرى في الاحتفال بمناسبةٍ كهذه بدعةً مجلوبة، وبخاصة اللجوء إلى إشعال الشموع « فهذه تستخدم في دور عبادة غير المسلمين»، وما يرافق المناسبة من ترداد أغانٍ هجينة، لكن أسرته المُحبّة احتفلت على خلافه بعيد ميلاد الابن العزيز الأصغر والوحيد بين شقيقاتٍ ثلاث له، وأولمت الأسرة له بأطايب الطعام والشراب، وأغدقت عليه الهدايا، وقد تمنّى الشاب اليافع على أبيه حين انفرد به في غرفة الاستقبال هديةً بعينها دون سواها، مُفصحاً بأنها أغلى هدية سوف ينالها من أبيه الحبيب بالمناسبة، ولن ينساها له ما بقي فيه عِرقٌ ينبض، وهي إغلاق الملهى إلى غير رجعة. الأم وقد تناهى إليها رجاء ابنها، هشّت وبشّت لهذه المفاتحة

إنما بكتمان. أما الأب فلم يُخيّب أملاً لابنه قرّة عينه، فقد استجاب على التو لالتماس ابنه بهزّة إيجابٍ من رأسه الأشيب بغير أن ينطق بكلمة، وبدمعة ساخنة طفرت من عينه اليمنى، ولم يُعرَف إن كان انبثاق الدمعة أمارةً عن رضى عميق حيال السلوك القويم للابن الوحيد، أم أسفاً مريراً على مربع البهجة والطرب، ومسرح الذكريات الذي سوف يصدح فيه بدءاً من الأيام القليلة التالية (الموالية) خواءٌ وخراب.

الملهى امتلكه ثلاثة شركاء أحدهم الأب بنسبة له تزيد عن النصف. وقد فاجأ شريكيه بقراره، ولم يكن في نيّة أحدٍ منهما أداء تعويض فوري أو قريب الأجل للشريك لقاء انسحابه، ورغم مودة ظاهرة بينهما فالشريكان الآخران ليسا على وفاق تام في ما خص تسيير الملهى، لكنهما سرعان ما اتفقا على أن يؤدي سي عبدالعزيز وهذا هو اسمه لكل منهما حصته، مع تعويض إضافي له مسميات كثيرة منها العطل والضرر ومخالفة روح العقد المبرم وبنوده، بدلاً من اللجوء إلى المحاكم. وقد أدى كل شيء لهما مع الزيادة الراجحة على مضض، متكبداً خسارة جسيمة لم يعوضها بيع الموجودات، وسارع لإغلاق الملهى على أصداء غناء مغربي وأندلسي طالما صدح به فنانون وفنانات ذوو وذوات حساسية جياشة،

وطاقة صوتية جبّارة، ولطالما تردد الغناء في أجواء المكان وجنباته، وعبقت به مسامع الرواد وسرائرهم.

فوق الخسارة اصطدم الرجل بتغيير طارئ ونوعي على حياته، هو الذي يمخر عباب ستينيات عمره. لم ينفعه الانشغال بتجارات أخرى في استمراء الوضع المستجد، ولا أعانه على نسيان الملهى الذي قلما يتسلل إليه (قلبه دائم التسلل إلى المكان) تاركاً الإشراف والمتابعة لشريكيه، فيما يُمضي جُلّ ساعات الليل بين جدران البيت في مشاهدة بث التلفزيون، وقراءة صحف الصباح غير المقروءة من جانبه، وتبادل أحاديث وديّة خاطفة مع العائلة، حتى يجد نفسه مختتماً سهرته المنفردة بسماع أشرطة الحاجة حمداوية، وما تيّسر من غناء أندلسي...وها هو وقد أغلق الملهى، وتحت وطأة الشعور بألم الفقد، ها هو يتعذر عليه سماع ما يُحب سماعه، إذ يستشعر حينها بصورة مضاعفة فداحة إغلاق مربع الأنس والطرب.

هذه الرواية وهي الرابعة عن ظروف إغلاق الملهى، طويلة بعض الشيء، وأوفر حقاً في تفاصيلها من سابقاتها الثلاث. فلما استشعر الحاج عبدالعزيز (وهذا أحد ألقابه الناشئة عن مداومته على أداء صلاة الجمعة، ودفع زكاة عيد الفطر لأرامل،

وقيل إنه أدى العمرة أو أنه ينوي أداءها، فضلاً عن صدقات يُقطعها بانتظام لمعوزين على مدار العام) لما استشعر تِبْعة قراره، فإنه لم ينحُ باللائمة على ابنه، وأدرك في الوقت ذاته فوات الأوان على تصويب القرار، ولم يرد في ذهنه البتّة افتتاح ملهى آخر، ليس لمجرد التقيد بالالتزام الذي قطعه على نفسه أمام ابنه وأمام بقية العائلة تالياً، بل لأن ما يستهويه هو الطرب الشفاهي الارتجالي الحر، لا التجارة في مرافق اللهو، فلئن شاء الخوض في التجارة، وقد شاءها وبرع فيها فله ذلك في تسويق الجلود والفخاريات وفواكه الفصول الأربعة، وصولاً إلى شحن الحبوب، وتسويق عقارات الأحلام.
ولعل الأمر على هذه الشاكلة واضح، وإن بعض وضوح، فقد افتتح الملهى في أواسط أربعينيات عمره، وهمّته آنذاك عالية، وشعر رأسه يغلب عليه اللون الأسود، وصفحة وجهه مستوية بغير خطوط محفورة، حتى أنها على شيء من التورد. وظل يشرف على الملهى وينتقي فنانين وفنانات لإحياء السهرات (بعض هؤلاء صعد نجمهم، وأصبحوا مطربين ومطربات تبث الإذاعة والتلفزة أغانيهم، ويبيع الباعة أشرطتهم)، حتى تشارك مع شريكيه فقام بتجديد الديكور والأثاث وأجهزة الإضاءة والصوت، وكذلك أدوات المطبخ والأبواب والحراس.

ثم بدأ ينسحب رويداً رويداً، وقد بلغ شغفه بالمكان مداه حين اجتاز على جناح السرعة عتبة الخمسين ببضع سنين. وهذه المسألة الأخيرة.. مسألة الشغف وما أعقبها ليست بدورها على جانب من التعقيد. فالرجل ملتزم التزاماً تاماً وصافياً بعائلته التزام قلبه بالموشحات وبفن العيطة، فإذا استجاب تمام الاستجابة لنداء خافقه، فلسوف يُمضي الليالي من مبتداها حتى مطلع كل فجر يحتسي الكأس الحلو دون أن يرتوي، ممن تقوم مقام الحاجة الحمداوية على الركح الصغير، وهو ما تفاداه، إذ دأب على المرور ليلة واحدة في الأسبوع بغير يوم ثابت، يمكث كأي زبون حصيف ذوّاقة بين ساعتين وثلاث ساعات، يتخيّر اثنين من الزبائن المعارف إضافة إلى أحد الشريكين، يدعوهم لمجالسته ويبادلهما المودة بأقل الكلمات، ويشرب بتؤدة عصائر الرمان واللوز والكيري والببّاي والجزر والكلتشة من كأس معدنية خاصة به، ويؤدي الحساب جميعه ويُكرم العاملين وتتقدم منه المطربة الشابة المليحة في ختام دورها، فيُدسّ بتحنان في يدها الصغيرة شيئاً من فيض نفسه، ولا يحرم الفنانين الشبان من كرمه وثنائه (يا شيخ صالح أنت.. السليل الروحي للشيخ صالح الغرناطي)، وتاركاً جلساءه يواصلون السهر الطويل ينهض معتدل القامة خفيف

المزاج تهزّه من داخله نشوة سُكّرية.. وممتلئاً بالألحان يعود إلى حصنه وقلعته (بيته)، مطمئناً إلى أن ملهى زرياب ملعبه وميدانه، ساحته ومطرحه، درعه ودريئته، مُلك يديه وطوع بنانه ساعة يشاء القلب في الليل الأعمى، ويستحق المكان أن يَكنّى بقليل من المبالغة أو بدونها، بخط دفاع أخير أمام عاديات التفاهة والرتابة، وضد ضجر العمر الذي طالما أفسد عليه صفاءه، ومنعه حتى من إتمام النطق بعبارة حين يُطبق على سويداء المتكلم، فتعاف نفسه أو لا تقوى على إتمام عبارته. والمتكلم هو سي عبدالعزيز حين يتكلم، ويكفّ عن الحديث إلى نفسه، فقد دأب على إنجاز أشغاله بغير أن يتكلم تقريباً، وتبادُل المجاملات بأقل الكلمات فلا يسرف في الكلام إلا حين تستبد به سورة غضب من تاجر أو موظف عمومي أو زبون يحاول أن يلعب عليه لعبة التاجر، وكأنما التزيّد في الحديث قرين انفلات الزمام وطائش الانفعالات. فلنكن على غرار الحاج عبدالعزيز، ونتخفف من الإسهاب بالتذكير سريعاً بأنه رباطيٌ حلّت أسرته في مراكش منذ ثمانين سنة (قبل ولادته) ودفنت فيها أمه وأبوه وشقيقة وشقيق يكبرانه سناً، ولم تبرحها الأسرة فبات هو مراكشياً اكتساباً وتأصيلاً باقترانه من سيدة مراكشية، وهو في الأصل سليل أسرة أندلسية

هاجرت إلى الرباط بعد سقوط ممالك الطوائف منذ أزيد من خمسة قرون، ولرجاحة عقله وبُعد نظره فقد أدرك مبكراً أنه كي يهنأ بالعزف والرقص والغناء ناهيك عن مباهج أخرى، فخليقٌ به الاستغناء عن كفاف العيش، فلا يصرفه نداء العوز عن الإصغاء لداعي المزاج، فسخّر نهاره كأي تاجر محترف للتجارة الموروثة من الأب والمتواضعة آنذاك، وقَصر ليله على عشقه الفطري للأنغام والتوقيعات مما يسري في دمه الأندلسي، طارحاً التجارة وراء ظهره كشاب يباشر الحياة على التو..

ولئن طال الحديث بعض إطالة فلن تنتهي الرواية الرابعة قبل معرفة ما جرى من أمر عبدالعزيز، فقد جعل بعد إغلاق محفل الطرب يبارح البيت على غير عادته، ويمضي الشطر الأول من الليل في مقهى والشطر الثاني حتى منتصف الليل في مطعم، رفقة صاحب أو صاحبين، بغير أن يتردد على ملهى لأسباب جرى شرح بعضها في ما تقدم، ثم أخذت نوبات من كرب عظيم كظيم تنتابه وتتناهشه وتشتت انتباهه في ساعات نهاره الطويل مرفوقة بوهنٍ جسدي وتوتر عصبي، حتى تصادف مع حسناء سمحة لطيفة على مشارف أربعينيات عمرها، ولم تكن سوى إحدى مطرباته الأثيرات في زرياب (بالنسبة إليها

كان الالتقاء به تدبيراً منها،لا مصادفة) وكان اللقاء متأججاً. وحتى لا يقع في مغامرات طالما تفاداها، وكي لا ينزلق إلى الحرام، فقد تزوج منها زواجاً نصف علني ونصف سري وأفرد لها بيتاً (شقة صغيرة) كبيوت الشبان المتزوجين حديثاً. وأبلغ زوجه وأسرته بالأمر بعد انصرام أيام على عقد القران، فتقبلوا الخبر بوجوم ثم على مضض فبتحفظ ثم بقبول، كما هو الحال مع مصائب الحياة الدنيا إذ تبدأ كبيرة ثم لا تلبث أن تصغر مع الأيام، وقد أوصت البنت الباقية في البيت طالبة الجامعة أباها نيابة عن الأسرة بأن لا يُثقل نفسه في هذه السن بأطفال، فاستجاب للطلب مدركاً أن الأمر يتعلق بالميراث ما أن تموت يا عبدالعزيز. وأوصى ابنه بالمقابل خيراً بأمه وأخته من غير أن ينقطع عن بيته العائلي، فقد ظل يمنحه وقتاً أطول من ذاك الذي يُمضيه في بيت التجديد، مع كرم أسخى من ذي قبل.

أجل، طالت الرواية الرابعة وها هي تؤذن على نهايتها. فقد استعاد الحاج شبابه ومزاجه الفني المشبوب في ليالي حياته الجديدة، وتفتق ذهنه عن دعوة أستاذ موسيقا صحبة مطرب ومطربة شابين وموهوبين لسهرة أسبوعية عامرة يشرح فيها الأستاذ مع العزف على العود الفروق بين الدقة المراكشية والعيطة الجنوبية، أو يقوم بالتعريف بموسيقا الراي والملحون

وغناوة، فيما صاحب البيت يتنبّه للشرح مرة ويسرح مرات، لتصدح بعد هذا زوج الحاج مع المطربَيْن الضيفَيْن بالغناء الذي يتخلله عشاء، ثم إنه دعا أسرته فلم تلبّ الدعوة بدايةً سوى الابنة. أما الابن الذي على وشك التخرج من الثانوية فاعتبر نفسه محتفظاً بوداعته وتهذيبه غير معنيّ بالدعوة، وهو يهيئ نفسه للالتحاق بالجامعة في الدار البيضاء، ليقيم هناك في سكن داخلي بعيداً عن الأسرة منقطعاً عنها، وربما يعثر هناك على أسرة لا تشتري متاع الدنيا بالآخرة، أما الحاجة أم الابن والبنات فقد أقبلت على تردد وفضول لاستطلاع حياة الحاج من الداخل، وإذا بها أسبوعاً تلو أسبوع تستمرئ الوضع مع حفاوة عظيمة (دعك مما في القلب..) تلقاها من ربة البيت، وأقبلت بعدئذ الابنة الكبيرة المتزوجة، ولحقتها الابنة الثانية وكلتاهما مع زوج كل منهما، وبعدئذ كان لا بد من الاستدراك بدعوة أسرة سيدة البيت وهؤلاء تلقوا الدعوة ولبّوها بترحاب غامر. ومن باب اللياقة وكي لا يشكون من انزعاج لحق بهم في بيوتهم، كان لا بد من دعوة الجيران الأقربين فتوافد هؤلاء متهللين، وازدحمت غرفة الصالون وفاضت بمن فيها إلى غرفة المعيشة. ثم صار السهر لمرتين في الأسبوع يدعو خلالهما أحد الشريكين مصحوباً بزوجه

(وقد بذلت العروس دوراً مشهوداً، ومتكتماً أفلحت فيه بإعادة التقريب بين من كانوا ثلاثة شركاء)، وقد ردّ كلا الشريكين على دعوات سي عبدالعزيز بمثلها، فنشطا بإقامة سهرات عائلية فنية مشابهة يلبيها الحاج وعروسه بأريحية وحبور، فيكون له أن يسهر ليلتين في بيته، وليلتين أخريين بين بيت الشريك الأول، وبيت الثاني في الأسبوع الواحد. وعِوض ملهى زرياب فقد نشأت ثلاثة مطارح للسهر والطرب، وقيل أربعة مطارح ذلك أن الحاجة أم البنين والبنات التي عادت إليها الروح، وطاب لها الجو الذي وصفته بالراقي وكانت تحسب من قبل أن «شيخات» هن من يُحيين مثل هذه الليالي، قد دعت من ما زال زوجها لإقامة السهرات ولو بين أسبوع وآخر في بيته فذلك أكرم له، فالبيت بيتك الذي يعرفه كل الناس وهو كبير فسيح يتسع لأعداد أكبر من الضيوف المحترمين وأنه استجاب وفَعَل.

في غدوه ورواحه بين أحياء وأسواق مراكش القديمة والجديدة، ووقوفه ساعات النهار على تجاراته، يغمره فيض من ترنيمات وتباريح مموسقة تنبعث من إهابه وثيابه كما من هواء المدينة، وبهذا يستدرك ما فاته وتشمله أخيراً معونات الفن الكريمة.

.. فلا يبقى والحالة هي هذه أمام رواد زرياب وقد تشتت شملهم، سوى أن يجتهدوا، بدورهم ويجترحوا جماعاتِ جماعات وحلقاتِ حلقات تدبيراً مشابهاً، وِفْق ما تسعفهم الأحوال كي تمتلئ البيوت، وكذلك ما تبقت من مساحات فارغة في الفضاء بأعذب الأنغام وأشجى الأصوات.

مع ذلك وفيما صهد الظهيرة يطرد الناس إلى الظلال، وفي مقهى يقع على مبعدة فراسخ مما كان ملهى زرياب، يحدث أن يرتفع صوتٌ يؤكد صاحبه الناقم، والمواظب على قراءة صحف المقهى الثلاث، يرتفع ويؤكد بإلحاف لجليسه الشارد الذهن « خويا.. خويا.. شيءٌ من هذا لم يقع البتة، ولا وجود له «على أرض الواقع». أعرفُ الحاج عبدالعزيز شخصياً كما أعرفك. إنها محض رواية مؤلّفة عنه يرويها رواةٌ وقد يقُصّها قاصٌ ويقرأها قارئ». ربما كان مُحِقاً، غير أن السامع النحيل لا يُحير جواباً فمعرفته بالمتكلم حديثة العهد، ومعرفته بملهى زرياب لا تتعدى إحاطته باسم المكان، فيكتفي السامع مُحتفظاً بسرحانه المديد بالتقاط سيجارة أخرى من علبة المتحدث العليم.

أشجار لا تبوح بالأسرار

الأشجار آباء وأمهات، والناس تحت أغصانها الوارفة وفي أفيائها: أطفال.

الريفي الوافد حديثاً إلى مراكش ليس طفلاً، فهو بسحنته السمراء وقد لوّحتها شمس الجنوب يوشك على بلوغ عامه السابع عشر. بائع متجول على قدمين كبيرتين وبِرئتين مفتوحتين، حديث العهد بالمهنة، يلتقط رزقه ببيع نظارات صيفية وولاعات صينية وقبعات قش مكسيكية وموبايلات هجينة، يستغرب ماشياً ومتوقفاً وببداهة طفل. حدائق القصور وحدائق ألف ليلة وليلة وحدائق الأندلس وحدائق النصارى، وقد رآها في الصور بديعة أكثر من هذه، لكنها ليست مثل هذه. وحتى حديقة ماجوريل الفخمة وقد رآها في المدينة ليست كهذه..

الشاب مُحِقّ بخصوص الحديقة الرقمية* التي يعبرها لأول مرة.

في مستهل الحديقة معرض هواتف، تحكي النماذج الأصلية

---

* حديقة مولاي عبدالسلام سليل الأسرة العلوية، تقع في قلب مدينة مراكش وتمتد على مساحة ٨ هكتارات، وتتوافر فيها خدمات الاتصال الحديثة.

للهواتف المعروضة خلف الزجاج التطور الذي أصاب هذه الآلة السحرية على مدى نحو قرن. شبّان يتفرجون على عَجَل، ويستذكرون بإشفاق الأجداد الذين لم يحُزْ المحظوظون منهم سوى على هواتف سوداء ثقيلة ومضحكة، والأشجار العريقة من حول المعرض واقفة لابثة. البائع اكتفى بنظرة سريعة وواصل سيره، فهو لا يتفرج على المعروضات حتى لا يثير اهتمام الرواد بها، فيُقبلون على اقتنائها وينصرفون عن شراء موبايلاته. بعض الشبان والشابات يمشون منفردين، يتخاطرون بغير ما حاجة إلى هاتف مع من هم في الحديقة، ومع نظراء لهم وراء الأسوار والبحار.

في هذه الأثناء يلمح البائع رجلاً أربعينياً ساهماً يجلس منفرداً. سحنته مألوفة بيد أنه لا يأبه به. الرجل ينظر إلى البائع نظرات غائمة، وبالكاد يراه فما أكثر البائعين الجوالين، ومهما اختلفت هيئاتهم فهم متشابهون في الطباع والأهداف. الرجل ممرض متفانٍ في عمله، عازب لم تدركه حرفة التأليف، وقلمه الثابت في الجيب العلوي للجاكيت لأغراض القيافة لا الكتابة، مسافر دائم في الزمان والمكان زادُه خيالٌ شغوف. غارق في تهيؤاته، وهذه تزداد وضوحاً في ناظريه مع زياراته المتكررة للمتنزه العجيب. وبِشحْنِ مرئياته وإطلاقها، فإنه

يضمن إيقاظ الحديقة وتحليقها تحليق بساط ريحٍ أخضر، إذ يعتبرها ويا للغرابة حديقة نائمة تنتظر من يوقظها، هو من سيوقظها، فيما يبدو لناظره شخصاً مُسرنماً.

ها هو يرى رجلاً مهيباً يرتدي عباءة ريفية قشيبة، ينتبذ مكاناً قصياً ليس بعيداً عن بوابة الحديقة. إنه «الشيخ» الوحيد في المكان. تحيطه هالة في وضح النهار. الشيخ يمُد يده باستقامة أمامه، وسرعان ما يتقدم منه سائحٌ تفتقت الحُجُب عنه، عجوز أجنبي مُحمرّ الوجه يحتفظ بقامة معتدلة ومشية نشطة، ينهض الشيخ لاستقباله ويصافحه بسخاء وحرارة، يتبادلان هزّات الرأس مع عبارات تشعّ بالمودة، ويدعوه الشيخ للجلوس بجواره تتوسطهما فتاة ترجمانة.. ضئيلة القوام ذات محيّا صبوح. المشهد واضح في رأس الممرض الذي يرتأي إنهاض الرجل وضيفه صوب المعرض الزجاجي. الأجنبي ينحني على المعروضات ويتفحصها واحدة واحدة، ويشير بإصبعه إلى هذه وتلك، ويطلق تنهيدات: أوه.أوه.. والشيخ بدوره يُبدي استغراباً مُفعماً بالزهو، فهذا ما لم يخطر له ببال في زمانه قبل ٣٠٠ سنة. الترجمانة بصوتها الرقيق تتولى الشرح الوجيز للسائح كما للشيخ المهيب، ويحاول الأخير كتم دهشته أمام الضيف.

أما البائع الناحل فيتقدم ويتمهل. يتلفت يمنة ويسرة، ومع انشغال رواد الحديقة عنه يُصاب بالتطيّر: لن يبيع شيئاً، ويخشى فوق هذا أن تراقبه أجهزة خفية، أو تلتقط الشرطة السرية صورة له، وتتهمه بمزاولة التسول أو السرقة. هنا أشجار قديمة وإنترنت حديث. وهنا باستثناء شجر التين الهندي أشجار غير مثمرة تُحسن سماع الهمسات. الأشجار تسمع كل شيء وتحتفظ بالأسرار، وليس أكيداً أنها تقرأ ما يبثه الراجلون والجالسون أمام الأجهزة المثبتة على أعمدة مخصصة لهذا الغرض، أو على تلك التي يضعها أحد الجالسين على الساقين أعلى الركبتين. البائع لا يكتب ولا يبُث شيئاً، إذ لديه ما يكفي من موبايلاته، دون أن يكون لديه ما يقوله لأصدقاء لا وجود لهم في المدينة الحمراء.

البائع يرى الأشجار وأعمدة الإنترنت والشبان المرحين، ولا يرى شيئاً مما يراه الممرض الذكي، الذي يُكلّم نفسه بأكثر مما يتكلم مع مرضاه، والمنصرف بعيداً في عطلة السبت عن المشفى الخاص إلى ما هو فيه، فلا يلحظ طيراً عابراً ولا تبلغ مسامعه سقسقة عصافير، فها هو ببذّته الحائلة وشعره غير المسرّح وملامح الشرود لا تفارقه، يقول لنفسه إنه توقف عند دهشة الرجلين في زيارة سابقة للحديقة، وإن أموراً جديدة

سوف تحدث. فالسائح يقول هذه المرة إن هذه الأجهزة خلف الزجاج لم تُصنع للمتحف ولا للفرجة، بل من أجل الاستخدام، وإن سعادته بما يرى تمتزج بشيء من الاستغراب، مُعرباً عن الأسف إن كانت صراحته غير لائقة، أو فاقت الحد. ولما لم يحِر الشيخ جواباً للتو بعدما سمع الترجمانة، فقد استأذنته هذه أن تجيب فأجابت: إن الأجهزة للاستعمال، عدا هذه المعروضة، أما الأجهزة في الأسواق فقد تم تحديثها، وجميعها القديمة والجديدة تعمل وفق القانون القديم نفسه والغاية ذاتها، وهي تسهيل التواصل وتقريب المسافات بين عموم البشر. فسأل إن كنتم قمتم بتحديثها فأجابته الشابة إن بلادكم، وبلاداً أخرى في الشرق والغرب تولّت هذا التحديث الذي نشأت عنه صناعة كبرى، وحركة استيراد وتصدير وبيع وشراء وترويج نشطة. وشرحت للشيخ ما ذكرته للضيف فأومأ برأسه موافقاً. وهنا شكر الضيف مضيفه لأنهم خصصوا حديقته لهذا الغرض، سمع الشيخ الترجمة فأجاب على الفور: الشكر للمولى وللأحفاد وللسلالة ولعشيرنا الكبير. عِلْمي بها حديقة للأشجار والنباتات والطيور والأرواح الشريدة. أجهل هذه الأجهزة الغريبة. فلما سمع الضيف العبارة الأخيرة. استغرب متسائلاً: كيف؟. فخاطبه قائلاً: إنني أتقدم عليك بمئة سنة

على الأقل، لقد جئتُ من نقطة أبعد من تلك التي وفدتَ منها.
أبعد من لندن، ألست ابن هذي البلاد؟
سأل الغريب، فأجابه الشيخ:
أتحدث عن الزمان، وأنت تحدثني عن المكان.
وأردف بنبرة مهيبة فتنت المترجمة:"يباعدنا الزمان واللسان، ويجمعنا هذا المكان.
الممرض المثقف هو نفسه أعجب أيما إعجاب بعبارته، حتى كاد يشُك أن تكون قريحته هي من جادت بالعبارة. استغرقه الهاجس لهنيهات فتباعد عنه المشهد، وأغمض عينيه، واستدعى بقدر من العناء صور الشيخ والسائح والترجمانة، وأعادهم ثلاثتهم إلى المشهد الذي هم فيه. وإذا بالأجنبي يومئ برأسه إيماءة تشي بالوداع، دون أن يلتقط الشيخ بوضوح مغزى الإيماءة.
أما البائع فبعد أن حانت منه التفاتة قَدرية، غريزية إلى السماء العالية إذا بشابة في مقتبل العشرين تستوقفه، يهش ويبِش لها، تسارع لاختبار ولاعة بنفسجية تقدحها على سبيل التجربة فتشتعل وتجرّب أخرى فتشتعل لكنها لا تشتري أيّاً منهما، تأخذ منه قبعة قش وتضعها على شعرها وتميل بعنقها في دلال، وتعيدها لصاحبها الذي يغتمّ، لكنها تبتعث

فيه مجدداً ذهوله السعيد إذ تخاطبه بتعمّد وبلغة «ثقافية»: لا تستغرب هذا المكان، هنا تمّ زواج الطبيعة والتكنولوجيا ويجب أن تبارك هذا الزواج. فغمغم ضاحكاً غير مصدّق ما سمعه: مبروك الزواج سبع بركات. بيد أن الأمر ازداد انغلاقاً عليه، وفكّر متمتماً بكلام غير مسموع.. متمتماً بكلامه هو وليس بهذه الكلمات: إذا كانت الطبيعة تزوجت زواج أباعد من التكنولوجيا (والأخيرة لا بد أنها ذكر)، فلماذا لا يتيّسر له هو الزواج بمن يهوى، لماذا لا تختصر الفتاة المليحة المحترمة الطريق الطويلة، وتعرض عليه هي الزواج منه كي يستجيب على الفور، ويمنحها بضاعته كلها ومعها سلع إضافية مخبأة في حرز حريز بمسكنه غير البعيد، وتشتمل على إكسسوارات وعطور نسائية فرنسية وإيطالية مقلدة، وتكاد لا تختلف بشيء عن الأصلية، مع أنه للحق لا يعرف شيئاً عن تلك الأصلية، غير أن التاجر الضليع في تجارته أحاطه بهذا. يكتفي بالنظر بخفر إلى عيني الفتاة الجريئة، ويستغرب كيف أنه هو الرجل يعتريه خجل، فيما «المدموزيل» ثابتة النظرات والفؤاد، تتبسم وتشيح بيدها عنه بحركة نصف ودّية نصف عدائية متجهة ببنطلونها الجينز الأسود وقميصها السميك المائل للصفرة، وخطواتها السريعة إلى أقرب جهاز مثبت قرب أقرب شجرة بين الأشجار

الطويلة، التي لا أحد من الإنسيّين يُدانيها طولاً. وقد تمنّى البائع الريفي وقد زايله الانشراح وأعتمت المرئيات في ناظريه.. تمنى في سرّه لو يُطلَق سراحه ويستمتع بتسلق هذه الشجرة، أو تلك في دقيقة أو أقل، والمكوث على غصن قوي وعالٍ منها تحجبه الأوراق عن الأنظار، يلتقط العصافير الغافلة كما يلتقط حبّات الثمر، يفتح قميصه للهواء الحر، ولأشعة الشمس غير المنكسرة، ويراقب الرائحين والغادين واللابثين في أماكنهم، ولا يتنبّه أحدٌ لوجوده هناك. لكن خاطره سرعان ما يؤوب من رحلته الخاطفة، إذ لم يعد طفلاً كي يتسلق أشجاراً، وليس في نيته التضحية بما يملك فداء رغبة طائشة، وتعريض بضاعته للتحطيم إذا صعد بها الى أعالي شجرة، أو للسرقة إن تركها خلفه بغير حارس.. فلن ترضى الفتاة المليحة بحراستها، وقد تقبل من أجل خداعه، فيترك بضاعته سائبة نهباً للنهابين.

البائع أعاد مروره من أمام الممرض قاصداً اختتام جولته في الحديقة، والممرض لابثٌ هنا ولا يقصد ساحة الفنا القريبة لتجسيد مرئياته كما سائر الحكواتيين المحترفين والهواة، تلعثُم نطقه وخجله الشديد يحتجزانه هنا، وقد حالا من قبل بينه والزواج، وقد استدعى البائع بحركة جلب حازمة من كفّه فتقدم منه على وجل. أشار له أن يمكث أمامه قريباً منه، وسرح

بنظره كالساحر مستدعياً مشهد الشخوص الثلاثة، ودافعاً الترجمانة لأن تلحظ وجود البائع، وما يحمله من بضاعة زاهية خفيفة الأوزان. الفتاة انتبهت لوجود موبايلات حديثة بحوزة البائع، لكنها لم تحرك ساكناً ولم تتفوه بكلمة، وهو ما استعصى فهمه على الممرض الذي غفل عن كون السبب يكمن في أن صوته لم يصل إلى مسامعها (صوته الحقيقي لم يبلغ عالمها الافتراضي) فخرج عن طوره قائلاً بصوت مسموع أمام رواد الحديقة: هيا اعرضي بعضاً منها على ضيفنا الرومي كي يدرك ما بلغته صناعة الهواتف، افعل ذلك أنت أيها الشاب، هيا افعل ولا تقف كصنم.. لماذا تطوف إذاً ببضاعتك، ولأجل من؟ هل استدعيتك أمامي كي أمتّع ناظريّ بمرآك؟ ومجدداً لم تسمع الترجمانة ما قاله، والرواد الذين سمعوا احتفظوا بمسافة غير قريبة منهما، وبالطبع فقد سمعه البائع الذي تراجع مذعوراً، فنهض الممرض من مقعده، ودعاه غاضباً للعودة بعدما تبددت المرئيات في ذهنه، ونَقده خمسة دراهم لقاء لا شيء، ووبّخه بتحنان معلم قروي، وبعبارات قصيرة غطّت على تلعثمه: لقد أفسدت كل شيء يا هذا، فقد كان معنا حضرة الإنجليزي غراهام بيل مخترع التلفون، الذي يحِلّ ضيفاً مُكرّماً على مولانا عبدالسلام، وتتوسطهما المترجمة

المحترمة. أنت لا تفقه شيئاً، اذهب بعيداً. لقد أفسدتَ كل شيء. ومغالباً رغبته الجياشة بالصعود إلى شجرة للاحتجاب عن الأنظار، فقد انحرف البائع نحو الباب، وخرج مُهرولاً صوب صومعة الكتبية المجاورة تلسعه الدراهم الخمسة في جيبه، ومتيقّناً في دخيلته من غرابة الحديقة.

ما فَعَله السيد خورخي

بسوره العالي وأشجار النخيل الصاعدة من خلفه وبوابته العملاقة المصفحة، يبدو المبنى من الخارج قلعة لا فندقاً. قلعة يجد فيها النزيل خورخي فرصة طيبة لتذوق الأشياء المهيبة، ويجد فيها الغريب سانحة لإشباع فضوله.

ما إن عرف الغريب من صديقه إبراهيم أن خورخي نزل في النّزُل، حتى أخذ يدور حول سور المبنى كالممسوس، مرة قبيل الظهيرة ومرة قبيل حلول الظلام في يومين متتاليين، علاوةً على مرات بلا عدد طافت فيها روحه في العشيات والأبكار حول المكان، وفي اليوم الثالث وقف بُعيد الظهيرة أمام البوابة الكبيرة التي انفتحت من تلقائها، وكشفتْ عن حارس فارع متين مُكفهر القسمات، سمع الحارس لكنة الزائر فرحّب به بعد عبوس جرياً على عادة حميدة في احترام الغرباء. شقّ الغريب طريقه بين صفّين من ورود صفراء ونباتات داكنة الخضرة إلى المدخل الزجاجي الداخلي ثم إلى البهو عالي السقف، وهناك بين رواد متأنقين منخفضي الأصوات احتسى قهوة ساخنة وشرب ماء بارداً، ودخّن سيجارتين لم تطردا لحسن الحظ أنفاس خورخي التي استشعرها تعبق بالمكان،

فهبّ واقفاً وانعطف إلى الحانة ذات الديكور المغربي، واختار مجلساً له يقابل باب الحانة. وما إن تقدمت منه نادلة ممشوقة بثوب قشيب تسبقها ابتسامتها المُشعة، حتى حانت منه ربما بداعي الخجل التفاتة إلى يمينه، فطالعته على الجدار صورة كبيرة بالأبيض والأسود لخورخي، وينبض وجه صاحب الصورة بتأمل عميق مشوب بالقلق، فحار هل يرسل التحية إلى خورخي أم يرُدّ على تحية النادلة، وأنقذته النادلة من حيرته قائلة إن الصورة تستوقف كثيرين وتحوز على اهتمامهم. وقالت إن إدارة الفندق كانت تنتوي تسمية الحانة على اسم الرجل الكبير، لكنهم في الإدارة غير متأكدين إن كان إطلاق الاسم يروق للورثة أم لا فهزّ رأسه قائلاً: حسناً فعلتم.. ولم تفهم النادلة إن كان الأمر الحسن هو التأهب لإطلاق اسم الرجل على الحانة، أم هو النكوص عن ذلك، ولم يصادف في نفسه حاجه لتوضيح الأمر، لكن الزائر أطفأ حيرتها بطلب بيرة محلية سرعان ما حطّت أمامه فاحتساها على عجل، ثم كرّر طلبه مرتين وثلاث فأربع وخمس وست فسبع وربما ثماني أو تسع مرات مغتبطاً بالتيه في أحشاء سوق مراكش القديمة ووجوه أهل السوق، ومسترجعاً ذكرياتٍ لأحداث بعضها جرى وبعضها لم يقع، في حضرة السيد خورخي الذي لم يكِف عن

التأمل، ولا زايلته مخايل قلق أبوي. فما كان من الغريب وبغير قرار مسبق، إلا أن نهض بقوة الرؤى الطليقة، وسطوة الكحول الغلابة.. نهض كالمسرنم صوب ركن الاستقبال، إلى الموظفة الشابة اللطيفة التي اكتست ملامحها بالجدية الودودة ما إن تقدم نحوها سائلاً بلهفة عن النزيل خورخي بورخيس..

جنسيته؟

أرجنتيني، أو لعله اكتسب الجنسية السويسرية.

بحماسة ظاهرة عكفت الموظفة الثلاثينية حديثة العهد بالعمل في الفندق، على تصفح مُشتملات الشاشة أمامها، ولم تفُت الغريب ملاحظة لَمعان بشرة وجهها ونعاس عينيها، فيما قلبه ينبض نبضات متسارعة يكاد صاحبها يسمعها. كيف لا يدُق قلبه بتلك الدقات المسموعة، وهو يتهيأ لاختراق جدران الأمكنة والقفز عن حواجز الزمان. طلبت منه الموظفة بطاقته، فاعتذر قائلاً إنه لا يحملها وقد تركها في فندقه، فسألته الموظفة المتفانية في عملها عن اسمه (اسمه هو، لا اسم فندقه) فأفادها باسمه، ودوّنته على ورقة صغيرة أمامها.

السيد خورخي موجود في الغرفة ٣٢٣

أجابته.

فوجىء الغريب وبذل جهداً هائلاً لإخفاء مفاجأته، وهتف

للموظفة: موجود إذاً، ونحن في العام ٢٠١٣؟ فأجابته الموظفة بنبرة واثقة، متجاهلة التذكير غير الضروري بالعام الجاري: نعم موجود. هل ترغب أن تكلمه؟. كان يدرك أن الإجابة بالنفي ستضعه على الفور موضع استغراب وربما محل شُبهة، فأجاب كاتماً ابتسامة حرج بـ: نعم، ودعته الموظفة للتحول يميناً إلى الكابينة القريبة للرد ما إن يرن الجرس.

هناك لم يتأخر اندلاع الرنين، رفع الغريب السمّاعة الرمادية الخفيفة الملساء فسمع صوتاً جهورياً يشق الفراغ ويُرحب به: أهلاً بالسيد المحترم.. وذكر صاحب الصوت اسم الغريب. هبط قلبه وهو يسمع اسمه ينطق به صاحب الصوت القوي الأجش، والذي يبدو صوت شخص على عتبة الكهولة، أصغر سناً من سن خورخي كما يخْبره. وردّ الزائر: أهلاً بكم. أنا غريب لا أستشعر غربة في هذا البلد الأليف، رأيت من واجبي أنا سليل القدس العربية الترحيب بالسيد خورخي لوجوده في هذه الديار، في مراكش الحبيبة، هل السيد خورخي هو المتكلم؟ نعم هو.. أنا خورخي. الغريب وقد غصّ بمفاجأة مؤثّرة أجاب: مرحباً بكم، لن أقلق راحتكم وسكينتكم. لن أتطفل على وقتكم. شكراً لكم سيدي، لا تتصوروا كم آنس بوجودكم هنا، الغريب للغريب نسيب، سرّني كثيراً سماع صوتكم.. إلى اللقاء. وكمن

يتخلص من جمرة حمراء في كفّه سارع للتخلص من السماعة بإغلاقها على حرفين أو ثلاثة حروف بدأ الطرف الآخر النطق بها، وملتقطاً أنفاسه، ومُتلفّتاً ذات اليمين وذات اليسار، ومستشعراً ضباباً رصاصياً كثيفاً يكتنف المكان، شقّ طريقه للنجاة بحذر وعناء في ما بدا له سرداب أشباح ومسرح أطياف متناوشة، فيما أخذ يردّد لنفسه بانفعال ولُهاث عبارة: ما أكثر مفاجآته.. لقد فعَلها السيد بورخي، فعَلها مرة أخرى.

ليلة بيضاء

إذا صادفتما شبحاً لا تقلقا.. سيذهب من تلقائه.

بهذه العبارة شيّعنا مضيفنا الريفي، صديقي معلم المدرسة وأنا الزائر، فيما كان كلب المزرعة النشط يجمجم، ويطوف حول السيارة العتيقة التي كان «موتورها» دائراً بصوت عالٍ.

صديقي النحيل طويل القامة سي حسن ضحك في العتمة وراء المقود للملاحظة التي أبداها المضيف، ووجدها مناسبة كي يُعلّق متهكماً: إنها مزرعة أشباح... مزرعة أشباح يا خويا.

فأجابه الضيف سي محمد بمزاج مرح: إنه شبحٌ واحدٌ فقط.

كان الوقت قبيل منتصف الليل.

المزرعة الواقعة في ظاهر المدينة، في الضواحي التي غمض عنوانها على الزائر واستسلم راضياً لهذا الغموض، تبدو ساكنة تكتنفها ظلمة، الأشجار معتمة في الليل الحالك والريح الخفيفة تلامسها وتحرك أوراقها بلطف.

كانت سهرة ممتعة، ولا تخلو من غرابة.

فمضيفنا الخمسيني مالك المزرعة يرتدي ملابس عادية: قميصاً وبنطلوناً حائلي الألوان لعلها ملابس العمل. ويحتفظ على رأسه بقبعة رياضية بيضاء مثل قبعات لاعبات التنس

الأرضي، ووجهه محتقن بعض الشيء بفعل الوقوف نهاراً تحت الشمس..والمكان الذي نجلس فيه مزيج من غرفة استراحة شاسعة، ومخزن لأدوات الزراعة: رفوش ومبيدات زراعية وسلال من قش وأكياس سماد مركونة في زوايا الغرفة الفسيحة. وقد أجلسنا مضيفنا حول طاولة مستطيلة على كراسٍ مريحة، حتى ظننت أنه عشاء عمل، دون أن أعلم أيّ عملٍ هو. ولم يلبث أن انضم جارٌ من مزرعة مجاورة إلينا في مثل سنّ المضيف، يميل إلى البدانة، ويحتفظ مثله بقبعة رياضية على رأسه. وقد صادفتُ ترحيباً بي وتقديمي على الجميع في سكب الشراب، وهو ما رفع معنوياتي. ثم أتى المضيف بأطباق صغيرة تضم فاصولياء بيضاء وكرات كفتة بالبندورة وسرديناً وحشائش، مع خبز فرنسي بدا وجوده غريباً إلى جانب أطباق ريفية مغربية. لم أعرف إن كان هناك شيء على المائدة من ثمار المزرعة، في هذا الوقت من السنة قبل حلول الربيع بأسابيع ثلاثة. كنتُ بحاجة إلى وقت طويل إلى انفتاح نفسي وذهني أكبر، حتى آلف المكان كملتقى للسهر. أما صديقي سي حسن فهو معتاد على المكان وأهله، وسرعان ما اندمج مع صديقه المضيف ومع الجار الذي انضم إلينا، وأخذوا ثلاثتهم يستأنفون حديثاً سابقاً بينهم بالدارجة

السريعة، يتذاكرون تفاصيل وقائع ماضية، يوافقون بعضهم بعضاً على صحة ما يقال، ويضيف أحدهم تفصيلاً سرعان ما تتم الموافقة عليه، ثم يتباسطون بودٍ بالغ وأحدهم يقسم بالله مصداقاً على كلامه، والآخر يُصدّقه بإيماءة رأس متكررة ولا يُطلب منه الكفّ عن القَسم، وأنا ألتهي بتناول الفاصوليا متفادياً السردين ذا الرائحة النفاذة، ثم التدخين واستراق النظر إلى السقف العالي للغرفة الكبيرة النظيفة متعددة الاستعمالات. لم يفهم الزائر الكثير مما قيل في حضوره. وأخذ يدرب نفسه طيلة السهرة على تذوق نبيذ أبيض ليس سيئاً ولا جيداً. تحدث الزائر قليلاً عن الطعام والشراب في بلاده. عن استخدام الرز، ورغيف الخبز المستدير، واللبنة، ومهروس الحُمُّص، والمخللات. وسأل المضيف لماذا يحتفظ بالقبعة الرياضية على رأسه في ساعات الليل، فأجاب بعد تردد ومع نصف ابتسامة: لإخفاء الصلعة، وخلع القبعة بالفعل وكشف عن رأسه العارية من الشعر لهنيهة وأعاد القبعة، وكان المسوّغ الذي ساقه بالفعل على درجة من الإقناع.

في الطريق إلى المزرعة عبرت السيارة العتيقة المكافحة دروباً ترابية وعرة متعرجة، طويلة ومعتمة، ما جعل سائقها يتشبث بالمقود بقوة لمنعه من الانفلات إلى ذات اليمين أوالشمال، وقد

أثنى الزائر على حنكة صديقه في سلوك هذا الطريق الصعب الذي لا تتخلله معالم مميزة خلا الأرض الزراعية، أو شواخص إرشادية، وكان من المحتمل أن تتعطل السيارة فجأة لأي سبب يتعلق بقِدمها وفرط استعمالها لكنها لم تخيب الرجاء بها، أو أن يفرغ البنزين منها فجأة إذ احتاج الوصول إلى المزرعة إلى قطع أربعين كيلومتراً من قلب مراكش، لكن السيارة اقتصادية كما قال صاحبها. وكان الزائر يُمنّي النفس بأنه سيلاقي لدى الوصول ما يُعوّض وعثاء الطريق، وقد صادف لدى وصوله كلباً أشوس شديد النباح وشديد التقرب من سيقان الزائرين، واكتشف أنه يزور صديقاً حميماً لصديقه منذ سنوات الطفولة، وقد باعدت بينهما الأيام وأماكن الإقامة والعمل، وأنه انقطع فترة طويلة عن زيارة صديقه، وها هو يجدد اللقاء به بحيوية بالغة وشوق ظاهر مصطحباً صديقه الزائر، وهذا شاهد على ما يحدث.

قبل انتصاف الليل، فرغت زجاجات النبيذ الأربع (صديقي أحضر معه واحدة منها)، وسأل صديقي مضيفه في الختام إن كان ثمة مشروب إضافي، فأجاب سي محمد المضيف إن هناك زجاجة روم مغلقة، سرعان ما استلّها من أحد أركان الغرفة الفسيحة. بعد تردد وافق صديقي أن يجربها، وقد

اشتمّها بأناة وتذوقها بحذر ولم ترُق له، وسكب لي رشفة من الروم تذوقته متهيباً، وكان مذاقه نارياً منعني من الكلام. لم يُفاجأ المضيف بالنتيجة، واحتفظ بقنينته كاملة.

نهضنا تأهباً للمغادرة. الزائر شكر المضيف سي محمد كثيراً على تمكينه له مغادرة المدينة الحمراء إلى الفضاء الريفي، والصديق السائق سي حسن شكر صديقه المضيف وجاره على الجلسة الأنيسة، وتبادلا كلاماً مازحاً ضحكوا له ثلاثتهم من قلوبهم.

أخذت السيارة البيضاء المكافحة من نوع رينو سنة ١٩٨٨ تزحف ببطء على الطريق إياها التي سلكناها لدى القدوم. طريق وعرة بين أشجار حمضيات يحفّ بنا الكلب المثابر الذي يبطئ من عدْوه كي يجاري زحف السيارة، وقد أثنى صديقي سي حسن على صديقه كثيراً سي محمد الذي يُخلص للأرض وفلاحتها كما يُخلص لأصدقاء الطفولة، وبعد أن قطعنا نحو ١٥٠ متراً لاح لنا جسمٌ نحيل أبيض يتخايل على مبعدة أمتار من مُقدّم السيارة.

سارعت بالقول، وأنا أتدارك هبوط قلبي: ها هو.

صديقي اندهش من فوره: ما هذا؟

أجبته: إنه الشبح الذي أخبرنا عنه صديقك.

وسألته: هل الكلب يمشي بجوارك؟
أجاب: نعم.
قلتُ أطمئن نفسي وأطمئن صديقي صاحب السيارة وسائقها: سوف ينبح الكلب الآن، ويتقدم نحو ذلك الشيء.
صديقي سي حسن أبطأ من سير السيارة وأوقفها، ثم أطفأ الأضواء الأمامية، وعاد لإشعالها مرتين بصورة متعاقبة للتأثير على الجسم الأبيض الذي أخذ يرفرف بذراعيه كأنما يود أن يطير وليته فعل، أو لعله يستوقف السيارة وهذا هو البادي والمؤكد. وقد احتفظ الكلب في الأثناء بهدوئه وتوجسه فلم ينبح ولم يتوتّر كما توقعنا. وقد تهيأ لي لحظتها تحت غفلة الارتباك أن الكلاب خلافاً للبشر ليست لديها القدرة على رؤية الأشباح!. كل ما فعله الكلب الحارس هو أنه تقدم بخفّة باتجاه الشبح، ووقف على مقربة منه بجواره، بهذا انضم للشبح على مبعدة أقل من عشرة أمتار، ووقف قبالتنا مُشكّلاً مع الشبح سدّاً أمام تقدمنا.. صديقي سي حسن انتابه غضب قوي، ولا شك أن إظهار الغضب هو أفضل وسيلة لإخفاء الخوف وربما تصريفه، أما أنا الزائر فكنت ضيفاً ولا يليق بضيف إبداء سخطه. تقدّم سي حسن بالسيارة مجدداً فتقدم الشبح يتهادى يحِفّ به الكلب خطوة إلى الأمام نحونا. كان بياضاً في

بياض، ويحمل شيئاً في يده: عصاً أو قضيباً معدنياً يخفضه إلى الأسفل ثم يرفع ذراعيه عالياً به. قلت لصديقي بصوت نجحتُ بصعوبة في إخراجه: اتصل بسي محمد، كَلّمْه. مدّ يده إلى جيب بنطلونه. سيقان صديقي السائق طويلة، والحيز الضيق للسيارة جعله يجلس في هيئة أقرب إلى القرفصاء لم تسعفه في سحب الموبايل من الجيب المضغوط، فأخذ عوضاً عن ذلك يخبط المقود خبطات عصبية يزعق معها صوت «الزامور». وأنا الزائر لا أستغرب ما يحدث، فقد كان يتعين كما يبدو أن نقطع طريقاً وعرة طويلة في منطقة لا يعبرها إنسيّ، كي نواجه ما نقابله الآن. وأخذت أسأل نفسي إن كنت أعرف شيئاً من فنون القتال التي انقطعت عنها منذ سنوات المدرسة الابتدائية قبل نصف قرن من الزمان. بينما يرسل صديقي لعنات غيظ عنيفة لا أتبين كنهها. في غمرة لحظات التيه هذه تهادى الشبح الأبيض، واقترب بخطى غير مسموعة هذا إن كان يخطو على الأرض ولا يطير على نحو منخفض، واتجه نحو صديقي السائق، الذي لم يفلح في ذروة ارتباكه بإغلاق زجاج السيارة، وقد خمّنت من جهتي أن الزجاج متوقف عن الحركة نظراً لقدم السيارة، ووسط الذعر المكتوم خرج صوت نسائي رقيق ومجروح عن الشبح من وراء بُرقع أبيض: أين

تذهبون بأمي، أريد أمي، أنزلوها الآن من السيارة.
سي حسن وقد ارتجّ عليه داخَلَه قدرٌ من الطمأنينة بعدما تبين له أن الشبح كائن بشري. تنهد بصوت مسموع، ثم فتح باب السيارة بتمهل، ووقف في الخارج قبالة من كانت شبحاً قائلاً بصوت عالٍ: ابعدي من هنا. انصرفي.. هيا انصرفي، وشتمها بصوت زاعق. وهي تقف صامدة تلهث وتردد بصوت مبحوح وأسيان: أنزلوا أمي، لا شأن لكم بها. إنها أمّي وليست أمكم. وأخذت تلوح وقد تراجعت إلى الوراء بغصن شجرة تحمله، فيما الكلب يُطلق نباحاً شرساً على ساق صاحبي. لم يكن لدى الزائر في الأثناء ما يقوله أو يفعله، لكنه نجح في الخروج من السيارة، ووقف خارجها قبالتهم، ورمقها بنظرة متأملة مُحايدة فإذا بوجه صبوحٍ لها يشِعّ حُسناً ورواء وبراءة. وهي لمحت الزائر وأنعمت فيه النظر لهنيهات، وخاطبته بنبرة حزينة لم تفارقها النقمة: شعرك أبيض مثل شعر أبي.. أين تخبئون أمي؟، وعلى الأصوات المرتفعة تقدم مضيفنا سي محمد مُهرولاً يسبقه صوت خبط أقدامه، واتجه نحو الفتاة الغاضبة، ومن خلال لهاثه خاطبها برجاء: ليسوا هم.. ليسوا هم، عودي إلى بيتك. وانحنى وسط دهشتنا على رأسها يُقبّلها على عجل داعياً إياها للعودة معه، فيما هي تردد: دعهم يُنزلونها من السيارة أولاً.

أين يذهبون بها. وهو يكرر لها: ليسوا هم.. ليست معهم، ليسوا هم، وأمسكها من ذراعها بلطف لكن بحزم عائلي، ومشى بها ببطء عائداً إلى البيت قائلاً لصديقي: انتظرني.

صديقي الذي ما زال في سورة الغضب لم ينتظره، وأقلع من فوره.

في طريق العودة قال صديقي كلاماً كثيراً متناثراً عن حياة الريف، وعن صعوبة أحوال ساكنيه، واعتذر لي، فاعتذرت له بدوري فقد أراد استضافتي بتعريفي على المزيد من الناس، وعلى وجه آخر للمكان، ولولاي لما حدث له ما حدث. وشملنا بعدئذ صمتٌ مديد، أبحر كلٌ منا فيه إلى ذكرياته وهواجسه، وأخبرني قبل وصولي إلى فندقي أنه سيتمكن من لقائي بعد غدٍ وليس في الغد، وذلك لدواعي عمله في المدرسة ولظروف عائلية. وقد هبطتُ غير مصدّق لما حدث لنا، وقد عزوت ما حدث إلى الشراب الذي ربما لعب في الرؤوس وخلط المرئيات والأفهام..

اتصل سي حسن بعد يومين معتذراً بحرارة عن ظروف طارئة تحول دون لقائنا، وقد عذرته. في اليوم التالي غادرتُ مراكش عائداً إلى بلادي مصحوباً بمشاعر طيبة جداً، وصور زاهية

لأشخاص وأماكن ومواقف، تتوسطها صورة شبح أبيض.

وقد مضت خمسة أشهر قبل أن يكتب لي سي حسن رسالة قائلاً فيها إنه فشل في العثور على صفحتي في الفيسبوك، وإنه عثر عليها أخيراً بمحض الصدفة، وسألني إذا كنت ما زلت أذكر ليلة الشبح. وأفاد أن سيدة أرمل وفقيرة كانت تعمل لدى مضيف تلك الليلة في مزرعة سي محمد، وقد اشتد المرض والإعياء على السيدة في إحدى ليالي الشتاء الباردة، وتم توصيلها بسيارة أحد الأصدقاء الساهرين، وهي في النزع الأخير إلى المشفى الذي لم تعد منه، وإن ابنتها الوحيدة التي كانت في عهدتها، ابنتها ذات الأعوام الثلاثة عشر آنذاك قبل أزيد من ثلاث سنوات قد تبعت السيارة، وهي تولول وتصرخ تريد أمها، لكنها لم تدركها. ومن يومها والفتاة ترتدي ملابس الحداد البيضاء، وما إن يحل ضيوف في البيت ليلاً حتى تظل متيقظة، وفي نهاية سهرة الضيوف تستوقف كل سيارة تخرج في الليل من المزرعة طالبة أمها، ظانّة أن السيارة.. كل سيارة تحملها. وأن سي محمد عجز عن تغيير هذه العادة لديها، وأوضح صديقي سي حسن أن زياراته لصديقه سي محمد تتم غالباً في النهار يوم السبت أو الأحد.

فلما سألتُ سي حسن في رسائلنا المتبادلة لماذا لا يصحب

سي محمد ضيوفه لدى مغادرتهم إلى مسافة كافية لمنع ظهور الفتاة الشبح، أجابني بأن السؤال خطر بباله وقد طرحه على سي محمد بطريقة ضمنية، وقد فهم بصورة ما أن للفتاة حظوة ودالّة على الرجل، وأنه يوفر لها فرصة متابعة كل سيارة، وإيقافها تهدئة لخواطر الفتاة، وإرضاء لها.. هي المتعلقة تعلقاً شديداً وكالأطفال بأمّها وتفادياً للأسوأ، فقلت له إن الأسوأ هو أن تتعرض الفتاة لحادث دهس من سائق حانق، أو حتى تحت وطأة ذعره، فأجاب سي حسن: لهذا فإن سي محمد يحذر الضيوف المغادرين من الشبح، حتى لا يتعرض أحد لسوء، وإن سي محمد لا يروقه الإفاضة في الحديث عنها، وإن أحداً من الضيوف لم يرها في بيت المزرعة بمن في ذلك هو (سي حسن)، الذي يملأه فضولٌ لرؤيتها في حالتها الطبيعية، وقد زار المزرعة بعدئذ بضع مرات أثنى خلالها سي محمد بصورة عابرة لكن بنبرة قاطعة على سجايا الفتاة وشمائلها، وعزمه على عدم التخلي عنها.

تلك الحافلة

بين فرنسا ومراكش طريق برّية غير منظورة تعبرها حافلة وحيدة قادمة من باريس، تتّجه الحافلة إلى هدفها بسلام كما هو مُقدّر لها ومأمول، وتتوقف هناك، ثم ينتقل من شاء من ركّابها إلى حافلة أخرى تُقلّهم عبر طريق بريّة معلومة إلى أغادير.

الحافلة ليست حديثة ولا قديمة، فعمرها أزيد من خمس سنوات بقليل. الأكثر أهمية أنها مهيبة الجُرم، ذات انسياب وجبروت تنتقل من بلد إلى بلد بخفّة فهدٍ عابر للحدود، وبرشاقة سفينة تشقّ البحر كالسهم لا فرق عند ربّانها بين ماء وماء، وتتعاقب عليها (على الحافلة، لا السفينة) الليالي والنهارات في عراء الطريق دون أن تخدش صلابتها، أو تنال من فتنتها، أو تفتّت عزيمتها.

تحمل الحافلة باقتدار أشواقاً هائجة، وذكريات حرّى، ومتاعب جمّة، وأحشية وأكياساً وحقائب بمختلف الحجوم والألوان والمحتويات.

سائقها الخفيّ (يحجبه حجاب زجاجي صفيق عن الراكبين، ولا يتبادل معهم الكلام، وتربطه بهم إضافة إلى الميكروفون

الداخلي، موسيقا تنبعث خفيفة سريّة كأنما آتية من السماء، وتملأ أرجاء الحافلة).. ليس على عجلة من أمره، مع ذلك تطوي حافلته الطريق الطويلة بدأبٍ عنيد وبلا هوادة. وبين حشد ركابها المغاربة والفرنسيين والأفارقة ثمة مقعد للشابة فاطمة، الابنة الوحيدة لعائشة التي تنتظر ابنتها في محطة الحافلات الطرقيّة في مراكش منذ خمس سنوات شمسيّة.

يضع السائق قبعة السائقين الكحلية (كسكيت) على رأسه الضخم، ولا يخلعها إلاّ لدى الترجّل في المحطات المتباعدة، على أنه يتوقف أحياناً.. ليس عند محطة، بل على قارعة الطريق. يترجّل إلى الهواء الطلق.. إلى الهواء المسافر لفترة موقوتة لا تقلّ عن عشر دقائق ولا تزيد عن ربع ساعة، أو يسترخي في الفسحة الزمنية هذه على مقعده ويضع قبعته على وجهه لزوم حجب الضوء بما يسمح بإغفاءة خاطفة، ويسمح للراكبين بالهبوط شرط أن لا يبتعدوا عن الحافلة.

فاطمة غير المرئية في الحافلة تكتشف خلال الرحلة الأثيرية أن فاطمات أخريات يُشبهنها بعض الشبه يشاركنها الرحلة، لكن أيّاً منهنّ لم تتنبّه لها، وهناك أكثر من سيدة رؤوم تحمل اسم عائشة على شبهٍ ما بأمّها، وليس بينهنّ أمّها، ولا واحدة منهنّ تناديها أو تومئ لها.

عـائشة الأمّ تنوء بـانتظار طويل ينحني معه رأسها، وتظهر من تحت غطاء الرأس شعرات سود مرسلة يخالطها بياض الشيب.. وإذ تحتفظ بانخفاض رأسها ولا ترى أي أحد أو أيّ شيء عدا ما هو أمامها ونُصب أنظارها المنخفضة، فإنها تمكث ثابتة في موضعها تفترش أرض المحطة، ولا تتزحزح عن ثقتها الأكيدة بقرب وصول حافلة فاطمة. إنها تجهل لِم يحدث هذا التأخير. لو جاءت ابنتها محمولة على جَمَل أو على فرس لكانت وصلت. لِمَ لمْ تصل الحافلة منذ خمس سنوات: هل فرغ منها البنزين؟ هل أصاب السائق مغصٌ شنيع، هل داهمه قلقٌ مفاجئ على بيته وبنيه فقفل راجعاً على أعقابه من حيث أتى؟ هل سرح ذهنه.. شرّق وغرّب وتاه عن صحيح الطريق؟ هل اصطدمت حافلته ببقرة ساهية أو بقطيع غزلان شاردة؟، كيف لعائشة أن تعرف.. إنها فقيرة إليه تعالى، لا تعرف شيئاً مما يدور في الدنيا الغامضة الواسعة وتزهد بهذه المعرفة، تعرف فقط أن فاطمة ستأتي، وحُكْم القدر أن تأتي.. لكنها تأخرت، ولو أنّ ابنتها الفتاة الفتيّة النشطة التي كبرت وصارت سيدة دون أطفال، لو أنها عادت مشياً على قدميها الصغيرتين وبغير هرولة لكانت وصلت متورّدة الوجنتين، ولعادت صُحبتها على الفور إلى أغادير، على أنّ الأمّ لا تتمنّى ولا ترتضي بعودة

ابنتها مشياً كما يعود المشرّدون والجوعى، بل سوف تعود عودة أميرة مرفوعة الرأس، بملابس قشيبة ذات لمعان يخطف الأبصار، وببهجة تشعّ من عينيها الجميلتين لعودتها سالمة إلى حضن الأم التي تتلهّف بشوق طافح لاحتضانها.

عائشة وقد طال بها المكوث لا يضنيها تعب ولا ينفد منها صبرها، وليس لها ما تفعله. يوافيها النعاس فتشُدّ إليها غطاء حائل اللون يتكوّر إلى جانبها.. تتستّر به وتغفو. تشعر بجوع فتمُدّ يدها اليمنى إلى الجهة اليسرى وتتناول برتقالة (ليمونة) أو قطعة جبنة صفراء صغيرة مع قطعة خبز أكبر منها، أو تكتفي بشرب الماء. تغفو فجأة ولا تعرف متى غفت ومتى استيقظت، تعرف أن بضاعتها ما زالت أمامها. كم قطعة؟ ١٥ ٢٠ ؟.. تأخذ في العدّ حتى تصل رقم ٦ فيعتريها ملل وسرحان، وتتوقف عن العدّ. لقد تركتْ البيت الموحش البعيد لتتخذ من المحطة مأوى لها، فما إن تصل فاطمة حتى تجدها قبالتها في الانتظار، وها هي تتعيّش على باب الكريم.. على بيع مناديل ورقيّة وعلكة لبان وولاّعات يتبرع بها محسنون، وتنسى إن كان الزبون قد اشترى شيئاً، أم تحدّث ببعض الكلام فحسب وانصرف، هل نقدها ثمن ما اشتراه أم لا، هل أعادت له بقيّة نقوده أم لا، والناس يحسنون الظنّ بها.

تنسى، ولا يُكدّرها أنها تنسى. إنّها تحبّ أن تنسى. لقد مات عنها زوجها قبل ١٠ سنين، وابنها أحمد الأصغر من شقيقته فاطمة بسنة قصد بلجيكا ولم يعد. أحمد رجل يثير الخوف ولا يخاف فلن تخاف عليه، أما فاطمة فكانت تكتب لها، والآن لم تعد تكتب لها كلمة واحدة. عائشة بالكاد تقرأ لكنّها تسمع نبض قلبها جيداً، حمداً للمولى أنّ قلبها ما زال ينبض، وقد قيل لها إنّ المرأة إذا مات عنها زوجها فلن تلبث أن تلتحق به، لم تدركها الشيخوخة بعد، فلماذا تموت..ها هو قلبها ينبض، وها هي حيّة تُرزق، قلبها ينبض ويُحدّثها أنّ فاطمة عائدة على متن حافلة طويلة، وعلى رأسها قبعة عريضة مزركشة كبنات النصارى...

تعرف فاطمة أنّ أمها تنتظرها في أغادير، وينتظرها الجيران والحيّ والمدرسة والحانوت والقطة الشقراء والبحر وشروق الشمس وغروبها والأب في ترابه (لو أمدّ الله في عمره لحماها من كل سوء، ولنَجّاها من التجربة)، وتجهل أنّ أمّها توقفت عن تنقية القمح والعدس، وعن طبخ الطعام وتنظيف البيت وتشميس الفراش وفتح النوافذ وإغلاقها، كي تنتظرها منذ ذلك الحين بباب دكالة في مراكش.

فاطمة يهفو قلبها وتشهق لهفة إلى مرابع طفولتها وصباها، بينما يكبّلها القلق من العودة.

فاطمة اليتيمة اشتد عليها اليُتم بعيداً عن الأم، والوطن الأم. قصدت فرنسا على جناح اللهفة للزواج من سي مصطفى قبل ٦ سنوات وبعد أربعة أعوام على وفاة أبيها. أحبّته من بُعد بالهاتف وعلى «النت»، وتزوجته في سن الثامنة عشرة وتطلقت منه بعد عشرين شهراً، وإذ يكبرها قليلاً فقد ظلّ يعيش (وهو متزوج) لنفسه، يعيش على هواه كأعزب طائش، يعمل يوماً ويتعطّل يومين، ومنذ ذلك الحين منذ طلاقها تقاذفها رجال من أبناء جلدتها ومن مِلل كثيرة، وأجزلوا لها وعوداً وفيرة لا طائل منها، وها هي وحيدة في ميعة الرابعة والعشرين تغالب الفقر تغلبه ويغلبها...

منذ وصولها ديار الفرنسيس امتهنت وكيفما اتفق عديد المهن عملت قبل أن تتطلّق، فالجوع لا يرحم ولا يُمهل، وسي مصطفى لا ينفق على أحد ويرغب لو تنفق هي عليه وقد فعلت، عملت بضعة شهور هنا، وبضعة أسابيع هناك: في مطعم، في مصنع تعليب، في محل إكسسوارات، في مخبز، في متجر هواتف، في ملحمة(مجزرة)، عاملة منزل تعتني بكلب عائلة فرنسية، وفي قطف العنب، قبل أن يستقر بها المطاف عاملة تنظيف في

محطة حافلات.

لا تصادف عناء في عملها، فثمة ثماني زميلات نشطات متعدّدات الجنسيات يتوزع عليهنّ الشغل، ويمكنها الخروج من الحمّامات بين وقت وآخر، فلا يصحّ ولا يُعقل أن تمضي بين ستّ وسبع ساعات في هذه الأمكنة حتى لو كانت نظيفة أو حتى لو كان العابرون إليها محترمين وهم ليسوا كلهم كذلك، وقد وعدتها رئيستها بنقلها قريباً لتباشر عملها في ممرّات المحطة، أو مكاتب موظفيها (تحت أقدام الموظفين...قالت فاطمة لنفسها). ماذا بوسعها أن تقول أو تفعل ؟ فلم تصادف ثباتاً وأماناً واستقراراً في العمل ولا راتباً مُجزياً إلاّ هنا.. «حظّك هنا يا فاطمة.. حظّك يتوقف هنا ولا يتزحزح، يا للحظّ الأعور».

سوف تعود حين تعود زائرة مُحمّلة بالهدايا والحكايات، ثم تؤوب سريعاً إلى موئلها، فقد أصبح لها هنا رغم كل شيء: عنوان عمل، مكان مبيت، تصريح إقامة، مورد رزق وصداقات، ولو أنها قليلة وعابرة. إذا ذهبتْ وأطالت مكوثها فلن تنجو. سوف تصادف من الأقربين ومن الأبعدين من يسُدّ عليها طريق العودة. لم تعد صغيرة، فقد كبرت في السنين العشر الأخيرة عشرين سنة. لا تعرف متى تذهب، لكنها لن تعود وهي

عاملة تنظيفات.

في بهو المحطة تسرق الوقت لتتصفّح من طرف خفيّ سحنات الغادين والرائحين، تُعاين خصوصاً ملابسهم الملونة والجريئة، حوائجهم الثقيلة والخفيفة، الحديثة والقديمة، وتلحظ بينهم بالفراسة وبالغريزة أبناء بلدها، تهِشّ لبعضهم.. للأطفال للمُسنّات للشابات اللطيفات للرجال المحتشمين، ولبعض الشبّان - قاتَلهم الله - غير المحتشمين. وهؤلاء يرسلون ابتسامات مكتومة وصريحة ويبثّون إشارات بريئة ولعينة، وبعضهم تصدر عنه تعليقات لاذعة تسمع طرفاً مبتوراً منها، تُرضيها أو تسامحهم. تعرف أنها ليست على جانب من الحُسن والجمال، ليست صابرين وزاني أو ليلى بختي، وأنها ممتلئة أكثر من اللازم وأنها قصيرة بعض الشيء، لكنها تضجّ بنضارة الشباب وهذه يلاحظها من يلاحظها..

إنّهم قادمون أو مغادرون، مشيّعون أو مستقبلون، وجُلّهم من أبناء هذا البلد يجهرون بعواطفهم، يندفعون رجالاً ونساء لعناق وتقبيل بعضهم بعضاً على وجناتهم المُحمرّة صيفاً وشتاء. وإذ تلحظ الجلبة المصاحبة لوصول حافلات من مناطق بعيدة، وجلبة أقلّ لتلك المغادرة، فإنها ليس لديها من تودّعه أو تستقبله، سي مصطفى نسيها وخيراً فعل وهي تسعى

لنسيانه، شقيقها أحمد يعلم الله ما الذي جعله ينسى في بلاد البلجيك شقيقته الوحيدة. الأمّ عائشة هي كلّ ما بقي لها، الخيط الباقي الذي يربطها بطفولتها وبالخالة والخال والجدّ والجدة، وبأزهى ذكريات البيت، وتعجز مع ذلك عن التواصل معها.. فأمّها تودّ أن تشدها إلى الماضي، إلى القفص، إلى دائرة الفقر المقفلة، وهي تبغي الانطلاق إلى الأمام، التقدم إلى المستقبل الذي ينتظرها ولا تعرف في أية زاوية في أي مفترق ينتظرها كي تندفع إليه.. إنها تتمنى لو أنّ أمها الحبيبة تنساها قليلاً ولو لبعض الوقت، لو كانت أمها تحبها أقلّ، تتمنّى وتستغفر الله إن كانت أمنيتها آثمة.

لا تستقبل فاطمة أحداً ولا تودّع أحداً. لكنها ترغب لو تستقلّ هنا حافلة متينة وسريعة، تحتشد بشبّان وشابات مرحين ومرحات من المغرب وإسبانيا وفرنسا وبلاد غريبة، حافلة تذهب بها في رحلة إلى البعيد، إلى نقطة بعيدة.. إلى أبعد نقطة، تسلّم قيادها لسائق حارس يقظ، يبرع في قطع المسافات الطويلة، ولا يكلّ من السفر إلى أن يبلغ محطته الأخيرة، محطة يحتفل فيها الركاب وهي من بينهم بمناسبة سعيدة لا تدري كُنهها، لتكن مناسبة مفاجِئة.. إنها مولعة بالمفاجآت، ومع كلّ حافلة تغادر ترغب لو أنها تندس بين ركّابها تغمض

عينيها لدقائق في مقعدها وتفتحهما بعدئذ على مشاهد مثيرة لم ترها من قبل، ثم لا تلبث رغبتها هذه أن تنطفئ، فهي – بغير أن تكون مُتطلّبة – لا تودّ أن تقصد مدينة قريبة، ولا حتى مدينة معلومة.. «اللهم احفظ عليكِ عقلكِ يا فاطمة» تداعب نفسها، وبخفّة يخالطها حنق ظاهر تعود إلى تنظيف ما يتعيّن تنظيفه.

– أين نحن يا سانو؟

سألت فاطمة زميلتها في العمل وفي غرفة المسكن، وقد اعتادت هذه الأطوار الغريبة لفاطمة، فلم تفاجأ بالسؤال الغريب:

– في فرنسا.. في باريس. أين تعتقدين؟.

أجابت سانو السنغالية الثلاثينيّة بصوت منخفض وهي تتلفّت حولها يُمنة ويسرة.

– نحن في مرحاض.

أجابتها فاطمة بنبرة هادئة لكن حازمة، وهي تنظر في عيني زميلتها السوداوين الواسعتين ـ

وأردفت: كان هدفي أن آتي إلى فرنسا، لا إلى مرحاض.

سانو تنهّدت ..أذبلت رموشها، وصمتت.

وما هي إلاّ أيام حتى حملت فاطمة متاعها القليل وغادرت

المسكن المشترك الذي كان يضمّها مع ثلاث أخريات وسط دهشتهنّ وتأثّرهنّ لفراقها المفاجئ، واستحضرن في لحظات وداعها شمائلها الحسنة فأحببنها أكثر، واستذكرن مواطن ضعفها فأشفقن عليها، وحاولت سانو بينهنّ إثنائها بل منعها عن الرحيل لكنها رحلت تاركة لهنّ بعض متعلّقاتها النسائية الخفيفة: علبتي شامبو، ثلاث قطع صابون، سشوار، فرشاة شعر، رحلت قائلة لهنّ: لن أنساكنّ، أنتنّ شقيقات لي.. ولم تلبث أن تخلّت عن وظيفتها في محطة الحافلات..«لسوف تجد الحمّامات من ينظّفها غيري، أو لينظفها من يستعملها».

يعلم العالم بكلّ شيء أين ذهبت، هل عثرت فجأة على وظيفة محترمة، هل عادت لسي مصطفى ففي أعطافه تبقى رائحة البلاد وحكاية حبّ مغدور أو مبتور، أم أنّها تديّنت واعتزلت الحياة الدنيا وانخرطت في حلقة دينية مغلقة، أم عشقت رجلاً من هنا وذهبت معه بعيداً عن المعارف والصديقات والأصدقاء رغم أنه ليس أكيداً أن أهل هذه البلاد يحبّون اسم فاطمة، أم جرفتها الدنيا إلى عمل «سهل» في صناعة اللهو والسهر، هل أصابها مسٌّ في عقلها فتخلّت عن الجميع، وابتعدت عنهم وانقطعت إلى ذات نفسها؟

أحدٌ من هذه الافتراضات لم يتحقّق.

فاطمة غريبة الأطوار، وبموهبة خاصّة بها لا تترك فرصة لافتراض، أو احتمال أن يتحقّق.

فقد اندفعت مبكّرة في رحلة إياب استجابة لنداء يصدر من أقصى النفس، نداء مُبهم لكنه ملحاح.. قصدت مراكش وعثرت هناك على أمّها، وانتوت أن تنتقلا معاً على جناح السرعة إلى حياة جديدة تجمعهما. لقد وقفت على رأس أمّها ذات نهار مشمس في باب دكالة بملابس لائقة لا تخطف الأبصار، بشعر قصير لامعٍ مُسرّح وبغير قبعة عريضة على الرأس، اشترت منها وهي تحبس أنفاسها مناديل ورقيّة كأيّ زبونة، لزوم الاختبار وعلى سبيل المداعبة، ونادتها: أمّي.. أمّي.. أمّي، وهزّتها من كتفها وقبّلت رأسها ويدها، وهذه لم تعرف ابنتها أو لم تسمعها، واكتفت بمخاطبتها بلطف «عادي» دون أن تنظر إليها. بعض المارّة توقّفوا لهنيهات أمام المشهد ولم يلبثوا أن انصرفوا إلى حالهم، متيقّنين أنّ لمّ شمل الابنة والأم قد حدث، ولم يتبقّ سوى مشهد أخير تأخر قليلاً ولا وقت لديهم لانتظاره. لم تستسلم فاطمة لرغبتها العنيفة، لحنينها الجارف بأن تلقي نفسها عليها. كفكفت دموعها وصمدت.. وبنشيج صامت غادرت حانقة متعجّلة بالقطار لا بحافلة إلى طنجة.

طنجة حاضرة الكلّ، مدينة أهلها ومدينة العرب والروم والمسلمين، ومحلّ إقامتها الجديد حيث التحقت بالعمل مُزيّنة (للدقّة: مساعدة مُزيّنة..) في صالون تجميل وفق تدبير سعيد شاءته لها الأقدار في اليومين الأخيرين لوجودها في بلاد الفرنسيس.

بينما ظلّت تلك الحافلة الخارقة القادمة من باريس، تعبر كريحٍ طيبة دائمة الهبوب رأس عائشة ليل نهار، وتؤنسها*..

---

* القصة مستوحاة من هذا التقرير:

نشر موقع «مراكش ٢٤» يوم الثلاثاء ٢٩ كانون٢/يناير ٢٠١٣ بواسطة: عبد الحميد زويتة وسليمة الجوري تقريراً تضمن بين ما تضمنه أن (عائشة) أرملة في عقدها الرابع اتخذت من بهو المحطة الطرقية بباب دكالة مأوى لها منذ ٥ سنين ، تعاني من اضطرابات نفسية عميقة. زوجها معلم توفي بتارودانت منذ ١٠سنين، وتتحدث كثيراً عن ابنتها (فاطمة) التي تعيش في فرنسا. كانت متوجهة إلى أكادير في صيف ٢٠٠٨ لتتوقف بالقرب من الساعة الحائطية لمحطة باب دكالة مكتفية منذ ٥ سنين خلت بالنظر لأحذية المسافرين من مراكش والقادمين إليه دون أن ترفع رأسها لترى الوجوه، وقال أحد السائقين الذي يعرف فرداً من عائلتها «جاءت إلى مراكش قبل ٥ سنين وكانت تسأل الجميع عن حافلة قادمة من فرنسا في اتجاه أكادير غير مقتنعة بما كان يتردد على مسامعها بعدم وجود الحافلة التي تنتظرها أصلاً تدخلت الشرطة وتم إيواؤها مراراً بدار البر والإحسان لكنها تعود بعد أسبوع أو أسبوعين.حاول أحد أفراد عائلتها إيواءها سنة ٢٠١٠ لكنها رفضت مرافقته، وقالت إنها لا تحس بالراحة إلا بالقرب من الحافلات، لأن (فاطمة) قادمة على متن حافلة من فرنسا وسترافقها إلى أكادير.

قصص أخرى :

119
كتاب
الإصدار « » يناير ٢٠١٥

لحظة خاطفة

يحرص الأستاذ نادر والأستاذ لقمان على اللقاء بصورة دورية، فهما صديقان قديمان، وقد اعتادا مخاطبة أحدهما للآخر بأستاذ منذ أن تزاملا مُعلميْن في مدرسة حكومية في شرق عمّان قبل ثلاثين سنة تربط الرجلان صداقة أليفة أقل من حميمة، لكنها راسخة مفعمة بالتفاهم والود، وقد صمدت صداقتهما على مدى السنين، ومع التقدم في العمر والتجربة، وأمام تقلبات الدنيا والأحوال (لقمان ترك التعليم الحكومي الى التعليم الخاص، ونادر غادر التدريس إلى التلفزيون). إنهما متقاعدان الآن وقد تجاوز كل منهما الستين من عمره. كلاهما لا يرى الآخر بهذا السن، بل في سن الثلاثين تقريباً لدى استهلال زمالتهما التي تحولت إلى صداقة، رغم ما يُباعد بينهما من طباع. لقمان محب للحياة شغوف بها، طموح على شيء من المغامرة، معتدل القوام وأصلع. ونادر يميل إلى البدانة شعره أبيض، طويل القامة، هادئ مرح ومتكدّر معاً، يأخذ الحياة كإجازة طويلة من عمل أداه سابقاً.. قبل أن يولد، فكيف وأنه قد عمل في حياته لستة وثلاثين عاماً ونيّف.

قلما يتواعدان، لكن مواظبتهما على اللقاء في الأماكن التي

يتوقع كل منهما أن يجد الثاني فيها، تتيح لهما اللقاء بصورة تجمع بين العفوية والقصدية. في المقهى الفلاني، في مركز ثقافي، في جمعية، في مهرجان، في ندوة، في مجمع نقابات، في «مول» تذهب إليه الأسرة.

يتلاقيان فلا تمُر ثلاثة أو أربعة أسابيع حتى يجمعهما لقاء، فإن لم يحدث ذلك، فإن أحدهما يهاتف الآخر ويسأله: وينك؟ ويتواعدان.

لقاؤهما هذه المرة في المقهى وسط الأراجيل في غرب عمّان، وقد جرى بعد أقل من شهر على آخر لقاء بينهما. أمامهما فنجانا شاي وقهوة. ولن يلبث من شرب شاياً أن يطلب على سبيل التغيير قهوة دون سكر، ومن شرب قهوة سادة سوف يطلب شاياً. نادر يُدخن، ولقمان يتناول أرجيلة في المناسبات فقط وهذه إحداها.

– مرحباً أستاذ نادر

– مرحباً أستاذ لقمان.

– طمّنا عليك.

– أنا بخير وأشعر بنشاط.

– هل تأخذ مُقوّيات؟

–لا حاجة لي بها. أشعر بنشاط لأني سافرت لـ ١٦ يوماً.

– بِجَدّ؟. لا يبدو عليك أنك كنت مسافراً.

– عدتُ قبل أسبوع.

–حمدلله ع السلامة.. إلى أين سافرت؟

– إلى السويد.

– إلى السويد ؟

–نعم أجمل مما توقعت.

–جاءتني دعوة وتذكرة طيران من زوج ابنتي المقيمة هناك

– جميل.. أكاد لا أصدق.

–بعث الدعوة والبطاقة أون لاين، والفيزا لم تستغرق سوى ثلاثة أيام. سلّمت الطلب إلى السفارة الأحد، واستكملت أوراقه الاثنين، استلمت الفيزا الخميس، وسافرت الجمعة.

– هكذا ؟.

– نعم.

– للتقدم في السن مزاياه. لوكنتُ شاباً لتأخر إصدار الفيزا. أما وقد تعدّيت الستين فالأمر أقل صعوبة. وجدت ابنتي وزوجها في انتظاري في المطار، ومنها انتقلنا بالقطار إلى مدينة غوتنبرغ. السفر بالقطار متعة.

– هكذا إذاً؟

–زوج ابنتي كان في إجازة من أجلي تفرّجت على البلد

وسمحوا لي بالخروج عدة مرات لوحدي.

جميل. أكاد لا أصدق.

-لا، صدّق.

-لي ابن في أذربيجان، وائل، لكنه لم يدعُني. ما إن يتزوج حتى يُطلّق.. مِزواج مطلاق. لديه طفل من الأولى واثنان من الثانية. يملأ فراغه بمشاكل من هذا النوع.

- يقال إن أذربيجان جميلة.

- نعم. اسم عاصمتهم باكو، تفرجت عليها على الإنترنت. لكنها ليست بتطور السويد.

-يا سيدي في السويد يخصصون مكاناً لوضع علب البيبسي الفارغة. تضع الفارغ ويعطونك قيمته أو يسألونك إذا كت تحب أن تتبرع به للجمعيات الخيرية. قلما أشرب مشروبات غازية لكن حسناً إني فعلت تلك المرة كي أعرف نظامهم. لا تسمع صوتاً مرتفعاً أينما ذهبت. الأشجار والنباتات في كل مكان. عندهم أشجار أكثر مما عندنا من سيارات. غابات وحدائق ومنتزهات وبحيرات. نصف الوظائف عندهم للنساء. أما الانتحار الشائع عنهم فلم أسمع به هناك.. لم ينتحر أحد أمامي.

-عرفت نظام حياتهم، وعُدت.

–نعم عُدت. أرى حياتنا الآن أسوأ من ذي قبل.

– أسوأ مما كنت تراها عليه قبل سفرك إلى السويد.

–نعم.

–هل سافرت حقا أم أنك تمزح؟

– ما بك اليوم يا أستاذ نادر؟ هل أنا من النوع الاستعراضي أم تراني أكذب؟ رأيت عرباً متسكعين يقيمون هناك بلا عمل، ويتقاضون معونة حكومية ويتأففون من كل شيء. هل تستكثر عليّ الذهاب إلى ذلك البلد؟.

– لا.. العفو. العفو. أصدّقك ولا أحسدك.

–لم أتحدث عن الحسد.

–لكني أستغرب مع نفسي.

– تستغرب مم؟

–تتذكر لقاءنا الأخير؟

–أين؟

–هنا في مقهى الجامعة، وحديثنا عن الحروب.

–نعم

– كأنه حدث البارحة. كأنك لم تغب عني سوى يوم أو بعض يوم.

–أتذكّر، ما زالت ذاكرتي تعمل جيداً.

–غيابك هذه المرة يبدو لي أقصر غياب.

–نعم أقل من شهر. فترة ليست طويلة.

– بل قصيرة.

– قصيرة، كما ترى.

– قصيرة جداً، وها أنت مثلما تركتك في المرة الأخيرة. لم يتغير عليك شيء.

– لم يتغير عليك شيء أبداً. وأنا أيضاً كما أنا.

–نعم أنت كما أنت.

–وأنت أيضاً..

– وأنا أيضاً.

–ربما كنت تلبس القميص نفسه، وذقنك نصف حليقة كما هي الآن. مضى الوقت سريعاً على آخر لقاء بيننا.

–نعم

–مرّ كلمح خاطف.

–العمر كله يبدو في بعض الحالات يمرّ في لمح خاطف. فما بالك بشهر واحد؟

– ها أنت قُلتها.

– سبحان الباقي. لمحة سريعة خاطفة.

- ومع ذلك تقول إنك سافرت ورأيت كذا وفعلت كذا.

-هل أحضر لك جواز سفري لتتأكد من الأختام؟.

-لا تُحضر شيئاً. أنت ذهبت وعُدت.

- تمام..

-وقد تمّ ذلك سريعاً جداً.

- نعم.

- ماذا بقي من الرحلة؟ قل لي بِذمّتك: ماذا بقي..؟ بقيت صور في الذاكرة. أليس كذلك؟.

-نعم..

- صور كثيرة تَمُرّ في ذهنك بلمح خاطف.

- صحيح.

-جرب أن تغمض عينيك، وتسترجع الصور الباقية.

- يمكنك استرجاعها حتى وأنت مفتوح العينين. صور يمكنك أن تجمعها معا فتبدو كأنها صورة كبيرة، بانورامية أو كما يقولون «كولاج» لكنها مجرد صورة واحدة، تمكث لبرهة وجيزة في البال. وقد لا تختلف كثيراً عن الأفلام السريعة التي تلمحها على التلفزيون، أو على النت..

-صحيح..

- وكأنك لم تسافر.

- لكني سافرت..

- نعم سافرت، وبقي من السفر صور تستعرضها في ثوانٍ، وبعضها يطمس بعضها الآخر.

- التقطوا لنا صوراً كثيرة ، وهي محفوظة عندي في الكمبيوتر.

- هل ستظل تُحدّق في هذه الصور؟ كلما حدّقت بها شعرتَ أكثر بأنها مجرد صورة من الماضي. الماضي الذي لا يمكنك الإمساك به، ولا أن تعيشه مجدداً. كأنك لم تسافر.

-

- ولهذا توقفتُ أنا عن السفر، بعد أن شعرتُ بعبث الذهاب والإياب.. لا أريد أن أتحول إلى مخزن للذكريات، لحُطام ذكريات لا تسمن ولا تغني من جوع. نجيب محفوظ معه حق فلم يسافر سوى مرتين طيلة حياته ومضطراً.

ـ لا تسافر..لا تسافر يا أخي. من يُجبرك على السفر؟.

قالها لقمان بنفاد صبر وهو يلف خرطوم الأرجيلة حول عنقها الزجاجي، وينهض شاعراً بدوار. قصد الحمّام، ومنه اتجه إلى صاحب المقهى وسدّد حسابهما، واستأذن صاحبه منصرفاً على غير عادته بسرعة خاطفة..

نادر وقد بقي وحيداً وسط الرواد المتسامرين تساءل مع نفسه: لماذا تصرفتُ على هذا النحو مع صديقي لقمان.. لماذا؟ ولم يعثر في جلسته منفرداً على جواب.

السرير والسريرة

بعد أن تقطعت به السبل شيئاً فشيئاً وتهتكت الأواصر أكثر فأكثر مع الأصدقاء والزملاء والأقارب والجيران ولغير ما سبب وجيه، فقد انسحب إلى البيت راضياً من الغنيمة بالإياب، مسترشداً بالمثل القائل: قلعة الرجل بيته.

وجد في البيت البسيط مستكمل الأثاث ضالته،

قانعاً بالهدوء مع زوجته الراضية قليلة الكلام.

والتماساً للسكينة توقف عن متابعة ضجيج التلفزيون، وأراح جهازه البصري والعصبي من فيض الأفلام والصور.

ولأن علاقته بالكمبيوتر والشبكة العنكبوتيية كانت محدودة، فقد سهُل عليه قطعها مكتفياً بقراءة كتب ورقية، وقد صادف الكثير من مؤلفات في مكتبته لم تتسن له من قبل فرصة قراءتها.

وبدلاً من الجلوس في الشرفة وتحمّل آلام الظهر، فقد لجأ إلى القراءة في غرفة النوم، واستذكر كيف أنه في شبابه الأول كان شغوفاً بالقراءة وهو ممدد على الفراش ليلاً ونهاراً، فلكأنه يقرأ بحواسه كلها وبجسده أيضاً، وقد استأنف هذا الشغف، وكأن أربعين عاماً لم تمض على انقطاعه عنه.

وقد لاحظ أن الكثير من قراءاته – دون أن يخلو الأمر من كتب لكّتاب أحياء – هي لكُتّاب راحلين أمثال: كافكا، دستويفسكي، همنغواي، برانديللو، هنري ميلر، وبدر شاكر السياب، عفيفي مطر، تيسير سبول، أمين شنار، صلاح عبدالصبور، غالب هلسا، غائب فرمان، ومحمد زفزاف، محمد الماغوط، عبدالحكيم قاسم، نجيب محفوظ، محمود درويش، محمد القيسي وبسام حجار ولكأنه يستمع إلى أصوات هؤلاء تنبعث من بين السطور، ثم تترنّم من تحت التراب وتتهادى إلى مسامعه.

رويداً رويداً وعلى مدى أقل من سنة تناقصت قراءاته، مؤثراً مناجاة الراحلين بصورة مباشرة من غير وسيط، ولم يخلُ الأمر من متعة.. متعة مخاطبة أرواح من يحبّهم وهؤلاء ليسوا جميعهم مؤلفي كتب، وبعضهم ليسوا من قراء الكتب، ثم متعة تناول الطعام على السرير، وهي عادةٌ لا تقتصر على المرضى في المستشفيات، بل تشمل بعض المُترفين، فليكن منهم..

يوماً تلو يوم أخذ يمضي ساعات طوال تجُرّ وراءها ساعات «أطول» في المناجاة والنجوى، ثم بدأ يشعر بصعوبة النهوض من الفراش، صعوبة متزايدة ليست متأتية من أسباب عضوية بل ناجمة عن انعدام الرغبة الكافية بالنهوض، مكتفياً بالذهاب إلى دورة المياه القريبة.

أمـا الـجهة الـتي واظب على الاستلقاء بـها فـهي اليمنى من السرير.

بينما واظب على الرقاد على جانبه الأيسر.

وإذا ما رنّ هـاتفه وكـان يعرف رقم المُتّصل يجيب بودّ حقيقي إنما بـاقتضـاب شديد، وإلا يكتفي بقراءة الرقم إذا كـان يجهل صـاحبه، حتى انقطعت المكالمات عنه، ولم يبـادر من طرفه إلى الاتصال بـأحد.

ومـا إن أقبلت هبّات الشتـاء البـاردة، حتى شرع يتدفـأ – طيلة الشتـاء – بـأنفـاسه متخذاً وضعية الجنين، حتى إنه داوم على هذه الوضعية مع حلول الربيع وهو يهتف في سريرتـه: هكذا أستعيد نفسي التي كدتُ أفقدهـا. وقد احترمتْ شريكة العمر ما تخيّره الزوج فـائق الاحترام، فلم تتدخل سوى بقليل من التنهدات وتقريب ذراعيها وتحريكهمـا.

بعد زهـاء ستة شهور،

وبعد كرّ وفرّ

بعد تردد وعزمٍ وممـانعة، فقد تمكّن مع مستهل الصيف وقد ملأت أشعة شمس أواخـر حزيران غرفـة نومـه.. تمكن بدعم معنوي وجسدي و«لوجستي» مـن شريكته مـن النهوض

ومغادرة السرير والغرفة ، وأخذ يذرع أرجاء البيت غير الكبير جيئة وذهاباً مغالباً تيبّس أطرافه، ومع نهوضه تجدّد إقباله على الحياة، وقد بات يراها جديدة «بعض الشيء»، غير مستغرب مع ذات نفسه لا من إدباره الغامض ولا من إقباله المفاجئ، مكتفياً بالاستعداد للرد عن سر اختفائه» بأنه لم يسافر إلى خارج البلاد كما قد يتبادر إلى الذهن ولا نزل مستشفى أو غاب في غياهب سجن، وكل ما في الأمر أنه نال قسطاً من الراحة.

لكن أحداً لم يتوجّه إليه بالسؤال.

صمتُ الحبارى

فـارَقَ هواية صيد العصـافير إلى غير رجعة قبل ٤٧ عامـاً، وظلّ ينتـابه ندمٌ وتقريعٌ على اقترافه تلكم الـهواية فـي طفولتـه، وشفـاعتـه الوحيدة أمـام نفسه أنه لم يوقِـع عصفوراً واحداً فـي الفخ، وظلت الـدودة (الطُعْم) حيّة تتثنى فـي كل مرة كـأنمـا العصـافير النطّاطة خفّـاقة الأجنـح، تدرك أن الصيـاد الصغير ليس جـاداً فـي نوايـاه الشريرة،

ثم... ثم وقعت بين يديه رواية حسنةُ السبك والحبك بعنوان «شـامـان» لشـاكر نوري، واجتذبـه الكتـاب بمـا هـو نشيدُ تعظيمٍ لكـائن غير بشري، لسيّد الطيور: الصقر المُحلّق الذي قلّمـا يصمُد بشرٌ، أو طيرٌ بـالتحديق فـي عينيـه، ومن تتحدث بـأخبـاره وأطواره الكتُبُ والألسنـة. وقد توقف عند إطراء الروايـة لـحم طير الحبـارى « اللذيذ»، وبـالذات منطقة الصدر لـهذا الطير الرمـادي الذي تقنصه الصقور في أثنـاء تحليقهـا هـي، وأسراب الحبـارى في أعـالـي السمـاء، كمـا على الأرض اليـابسة حين يرقد الحبـارى، وهـو بحجم دجـاجة أو حمـامـة خلف الأشواك الجـافة، يتخذ منـهـا متراسـاً لاتقـاء هجمة الصقر البـاسل، وهذا ينجح في اقتنـاص

ضحيته إذ يتفادى الشوك ويلتفّ عليه، ويُطبِق من الخلف بِجُرمه وجناحيه العظيمين على الحبارى اللائذ بالنبات ذي الإبَر، وينهش بنَهمٍ واقتدار لحمه الدافىء الحيّ. ولئن نزف دمٌ غزير من الضحية أو صدرت عنها نفثات مكلومة، فلن يستوقف الدم الصيادين والفضوليين ولن تتناهى الأنفاس إلى مسامع أحد، فمن طبائع الأمور ومنطق الأشياء أن ينهش الصقر طائراً حياً، وأن تنزف الضحية حتى النهاية فيما هي تتشظى، وتؤكل قطعةً قطعة في كنَف صمتٍ كوني.

بهذا تتعرض طيور الحبارى لعقوبة قصوى، جعلتها على الدوام في مرمى مخالب الصقور الجارحة.

القارىء الذي يستهويه التقاط ما يمكنه التقاطه من فروقٍ بين الأشياء، تنبّه إلى مكر الطبيعة إذ جعلت أعداد طيور الحبارى (وهي تُناظر طيور الفِرّي وفق تسمية بلاد الشام) في تزايدٍ مستمر، وأعداد الصقور في تناقص دائم، ولاحظ غير شامت أو مختال أن الدائرة سريعاً ما دارت وتدور في الفضاء وعلى الأرض، فدَأب صيادون صحراويون وريفيون مُحترفون على اقتناص الصقر.. يأسرونه ويطبّبونه ويروّضونه فيما هم يُمطرونه بالمدائح، ومعسول الكلام، وجُلُّهم يتخذه سلعة تُباع وتُشترى في الأسواق كالعاديّات.

قبل فروغه من قراءة رواية «شامان» المُتقنة، أفاق على اصطفاق أجنحة سربٍ من الحبارى اندفعت من بين صفحات الكتاب، ولدهشته فقد اتسع فضاء غرفته لسبع منها بغير أن تتصادم، وتناثر منها ريشٌ ناعمٌ حوله، وأزكمت رائحتها أنفه وأعادت إلى رأسه رائحة قِن دجاجات جَدّته، وتناهت إلى مسامعه سقسقات الحبارى الخافتة، وبدا له أنه سمعها تناديه باسمه (سامي) وكما يصدح طير الببغاء المنزلي باسم صاحبه.

آنسهُ الحشد والهرج رغم نُشدانه السكون والسكينة، ورغم رجفة أخذت بخافقه، وواصل مع السارد رحلة البحث المحموم عن الصقر شامان، ورأى القارئ في الأثناء أنه تحرر من جسمه الثقيل الزائد عن حاجته. وقبل أن يختفي السرب.. قبل أن تتبدّد الرائحة وتذرو ريحٌ عابرة خفيف الريش، رأى في وحدته أنه بجناحين يرافق بهما السرب رحلة الطيران من سقف الغرفة الى رحابة السماء.. هو من صادف في حياته المديدة وفي عديد البُلدان ما لا يحصى من صقور حانقة أسيرةَ حظائر طيور، ولم يكن حالها ليسرّ الخاطر رغم ما تزهو به رؤوسها المتشامخة من مكابرة موصوفة. ومن دواعي أسفه أنه وهو يحوز وقتاً فائضاً عن حاجته لم ينضم لجمعية الرفق

بالكائنات، فقد حظرت السلطات إنشاءها في المهد بداعي أن فكرتها تحِدّ من «الاستغلال المشروع لثروات الطبيعة»، فزاد افتتانه بالحبارى الأليف، الطائر العادي بلون التراب الذي يواجه مصيره منفرداً بغير صخب، أو عويل، ولم يشغل القارئ باله ولم يشحذ أسلحة النقمة على السلطات، وهذه دأبت على اصطياد الناقمين عليها أولاً بأول.

في جلسته تلك ساعة العصر في ظاهر المدينة، وفي يومٍ صيفيٍ ليس عاديّاً في ميزان أيامه، تمنّى ثم صلّى بجُماع قلبه كي ينهض فارسٌ عارف بلغة الطيور.. يدرأ الضغائن بين الكائنات، ويرفع اللبس أمام أمّهات الحبارى، فخلافاً للصقر العسكري الأشوس عدو الطيور الهامشية المسالمة، فقد افتُتن قارئٌ مجهول بالحبارى نَكِد الحظ، شهيد الضعف ونجمُ قائمة طعام موائد الأمراء.

افتتن به وما كان له إلا أن يمتثل، فقد استوقفته لدى خوضه في شعاب الرواية بطولة الصمت لدى الحبارى الضعيف، فمنذ القِدم تفترس الصقور الحباري بلا هوادة، ومنذ الأزل تصطدم الصقور بصخرة صمت الحبارى اصطدام جلادين مولجين بتعذيب ضحاياهم بالصمت الحديدي لهؤلاء، حتى بدا هذا الطائر الغريب في مرآة نفسه المجلوّة قريناً له ونظيراً، وأن يد

المشيئة لو اختارته وسوّته طائراً لا إنسياً، لخرج طيراً من طيور الحبارى المهددة من الصقور المهددة من الصيادين المهددين بموتٍ محتوم. بيد أنه لم يكُ يوماً إلا محض إنسيّ، وها هو وقد اصطادت حرب الغزاة الوافدين من وراء البحار والجبال ساقه اليمنى وحشاشة قلبه، ها إنه يزفر أمنية أخيرة بأن يرزقه الرازق عِوض ساقه المبتورة جناحين عريضين خفّاقين، حتى لو صادفه – وهو يُحلّق بهما – الصقر كامل الأوصاف شامان المتحرر من أسره الأرضي، والهائم على وجهه وكبده مُتتبّعاً ضحاياه بين السُّحُب العاليات السارحات. ها هو يشهق وينهض بعزم لملاقاة قدرِه، فلتحرسه ملائكة الإنس والطير ولا يقع أرضاً.

مزيد من الرسائل

فوجئت البنت، ابنته بمئات الرسائل في بريده الإلكتروني. كانت قد استأذنت الأم في فتح بريده، الأم استفاقت على السؤال فمانعت، ثم ترددت، وسألت ابنتها بعدئذ: لماذا تفعلين؟ أجابت البنت: ربما هناك رسالة مهمة من مكانٍ ما، من أحدٍ ما. وافقت الأم على مضض، والبنت، ابنة الستة عشر ربيعاً هي التي اختارت كلمة السر لأبيها، وتعرف الوصول إلى بريده. صادفتْ حشداً من الرسائل: من أصدقاء، من منظمات ومؤسسات وشركات، ومن أشخاص لا تعرف إن كانوا أصدقاء لأبيها أم لا.

«ندعوكم للمشاركة في مؤتمر رجال الأعمال في القاهرة قيمة الاشتراك ١٠٥٠ دولاراً».

«أرسل لك آخر ما كتبت، أرجو أن أسمع رأيك بصراحة. بصراحة وليس بقسوة».

«هل ننتظرك في الربيع المقبل؟».

«تبادل الرسائل إلى ما لا نهاية لا يفيد، لا بد أن نبحث الأمر قريباً وجها لوجه، وستكون سعيداً».

«برجك اليوم: آفاق مفتوحة أمامك، صحتك عال العال، ولكن

ذلك لا يعني الافراط في عاداتك اليومية».

«وصلت رسالتك، ننتظر تعليمات مجلس الإدارة في الأسابيع القلية المقبلة، كي نجيب على ما ورد فيها».

«فوائد الباذنجان غير المنظورة».

«كيف تقتل أوقات الفراغ؟»

ثم صادفتْ رسائل سياسية عن الحوثيين، عن الربيع المُفترى عليه، الديمقراطية لمرة واحدة، لبنان أمام المجهول، لماذا لم يستقل صائب عريقات، كيف حدث ما حدث في شارع محمد محمود، سيرجي لافروف يتقيّد بالقانون الدولي، كونفدرالية الشغل إلى أين، المصادقة على اتفاقية قناة البحرين بالأحرف الأولى..

الأم أشفقت على ابنتها من هذه المهمة العسيرة، وتحمّلت العبء عنها، وجعلت تتصفح بقلب خافق الرسائل الواصلة إلى زوجها وتتخيل مشاعره حين يقرأ الرسائل الواردة اليه. ولم تلبث أن توقفت عن ذلك، وهي تغالب انفعالاتها. وازعٌ داخلي هتف لها أن تتخلى عن الفضول، وأن تتوقف عن انتهاك خصوصياته. أما السبب الأكثر أهمية الذي جعلها تكفّ عن تصفح الرسائل، فهو خشيتها أن تصادف رسالة حميمة إلى زوجها تؤرّقها، وتبلبلها.

مع ذلك وما إن أقفلت بريده، وابتعدت عن جهاز الكمبيوتر، حتى غَبَطت أصحاب الرسائل المُرسلة... لشدّ ما غبطتهم، وشعرت بالحسد حيالهم جميعاً لأنهم لا يفتقدونه، ولأنهم واثقون أنه حيٌّ يرزق مثلهم.

حياة رخيصة

العبد وقد ضاقت الدائرة على سيّده الذي ابتلي بالأمراض والسهاد وانعدام الشهية إلى الطعام والشراب بعدما ثار الناس عليه، وأحاطوا بأسوار القصر إحاطة السوار بالمعصم، وقرعوا بوابته قرعاً شديداً.

العبد وقد حدث ما حدث من حدثٍ جلل، التمس من/ إلى سيّده أن يفك قيده لبعض الوقت، كي يتسنى له امتشاق السلاح دفاعاً عن سيّده الأبدي، وقصره.

سّيده حاضر البديهة أجاب على التو بأنه سيفعل ذلك على الرحب والسعة، وأنه سينقل القيد من يدي العبد إلى قدميه، مع توسيع دائرة القيد بما يُمكّن عبده الحبيب من الزحف المريح. أمام هذه المفاجأة السارة (التي إن دلت على شيء، فإنما تدل على..) أمام ذلك انكبّ العبد على قدمي السيد الرئيس يوسعهما تقبيلاً ودموعه..دموع الفرح تغسل قدمي سيّده، وهو يهتف: لو أصابك ضُرّ يا سيدي، لو نالت منك العوام والدهماء لا قدّر المولى، فلسوف أحرم وأبنائي من الحرية الى الأبد.

ولم تمض سوى ساعة أو بضع ساعة حتى خرّ العبد صريعاً عند أسوار القصر، ولم يرفع أحدٌ جثته من هناك، لكن صورته

تناسلت في هيئة عبدٍ ثانٍ سارع للامتثال بين يدي السيد الرئيس، ملتمساً الإذن له بأن يفتدي سيده بحياته الرخيصة، وشفاعته في ذلك أنه لا يملك من متاع الدنيا شيئاً سواها..

السيّد والعبد

وقف العبد فوق جثة أمه الساخنة التي قتلها سيده هذا الصباح بمسدس كاتم للصوت، وأنبأ العبد سيده بنبرة مفعمة بالتأثر الشديد، أنه شديد القلق على صحة الطفل المُكرّم ابن سيده، بعد ما تناهى إلى علمه أن سيده الصغير مُصابٌ بزكام. فطمأنه السيد الكبير أن صحة السيد الصغير في تحسن، وأن الرجل الصغير يشكو فقط من انحراف في مزاج وسوف يتحسن مزاجه بعد قليل حين يتمكن من اصطياد قطط وكلاب صغيرة في الحديقة بمسدسه الذهبي. فتبسّم العبد مُثنياً على الروح المرحة لسيده الصغير، وعلى ذكائه الموروث.. ثم طلب السيد من العبد أن يسارع إلى تنظيف المكان من الدم، والتخلص من أشياء زائدة في المكان، فهزّ العبد رأسه قائلاً هذا هو ما أنوي فعله الآن سيدي. فَسُرّ السيد لذلك سروراً غامراً، وحدّث نفسه بأن الحياة في القرن الحادي والعشرين ودون وجود عبيد شديدة الصعوبة، وحمد المولى أنه يتوافر على عبدٍ ممتاز، نَشِط، متوقد الذهن، ذرب اللسان، مرفوع الرأس، مهيب الجانب وموفور الكرامة.

ظهور واختفاء سي محمد

بعد مضي ستة أيام، وقد تبدّدت الدهشة الأولى حيال المدينة التي حللتُ بها لأول مرة، أخذتُ أمشي في شارع رئيسي هائماً على وجهي، وقد تجدّد لدي الشعور اللعين بالخواء، واستبد بي شوقٌ محرور إلى شيء مجهول، أو شيء غائرٍ قديم العهد، مُمنياً النفس بل عاقداً العزم على سهرةٍ تُخرجني من جلدي، وقد استعددتُ لها بسحب شهيق أتبعْتُهُ بزفيرٍ طويل من رئتي، حتى حانت مني التفاتة سارحة إلى جواري فبدا لي محمد يتقدّم خارجاً بخطىً ثابتة من «شارع الشياطين»، وكان الوقت بُعيد العاشرة مساء بقليل.

«شارع الشياطين» في قلب طنجة فسيحٌ نظيف تغمره السكينة، يمتد بطول مائة متر، وبِعرض خمسة عشر متراً، تحِفّ به عشرة محلات على كل جانب، ليست جميعها حانات وملاهٍ. كان الطقس في الأيام الأخيرة من فبراير يميل للبرودة مع تيار هواء نشط يتدفق من المحيط، وقد رأيت سي محمد وحيداً وعلى شيء من الحماسة، وبدا لي أنه يُكلّم نفسه وبانسجام. تسمّرت في موضعي، ونظرتُ إليه - أنا الذي لم أعرفه من قبل - نظرة العارف فبادرني متفحّصاً سحنتي:

أنا أعرفك.

قلت شكراً. أنا أعرفك أيضاً.

فتبسّم وقال مستدركاً لكني لست متأكداً من اسمك. أنسى الأسماء..

فأخبرته باسمي فهتف: نعم نعم.. هذا هو أنت، ماذا تفعل هنا؟

فأجبته: أبحث عنك..

فتبسّم ورفع صوته عن ذي قبل: لا أحسبك خائباً حتى تمضي جُلّ وقتك في البحث عن شخصٍ غرُبت شمسه.

لا تقل هذا.. شمسك لا تغيب. أجبته.

راقه الثناء، فأردفت: شمسك تشرق في الليل.

فضحك بجذل وخجل قائلاً: أنتم المشارقة تُحسنون كيل المدائح، لهذا ابتُليتم بدكتاتوريين. هيّا معي إن لم يكن هناك ما يشغلك.

وأخذنا نمشي في الشوارع الداخلية المتفرعة من شارع محمد الخامس، ونتبادل أقل عبارات المجاملة، حتى دلف بنا سي محمد إلى حانة صغيرة نظيفة لا يافطة على بابها، وسارع للجلوس في الركن الأيمن متفادياً مواجهة العابرين والجالسين. ودعاني للجلوس قبالته. جلست مستشعراً دفء المكان وألفته رغم خلوه من أية رائحة ومن أي ديكور. وما

إن أقبل النادل باشّاً حتى خاطبه قائلاً: اهتمّ بأخينا العربي المشرقي. فهزّ النادل رأسه هاتفاً: يا مرحبا.. مْتشرّفين. فتهللتُ باحتشام، وغمرني شعور بالرضى الداخلي، فلستُ سيء الحظ كما أزعم لنفسي في نوبات تَطيّر.

وسارع يسألني إن كنت أعرف الشاعر محمود فأجبت بالإيجاب، وسألني عن أخباره فأجبته إنه يحتفظ بنضارة الشباب، ويتخذ رام الله مقراً له، قال إنه يحبّه ولا يكرهه رغم أن محمود شخص صعب. وأوضح بنبرة تخالطها بُحّة إن الشاعر حلّ في طنجة مرة أو مرتين، لأني رأيته ذات مرة ليس هنا بل في الرباط. وأنت ماذا تفعل؟ سألني. أجبت إني لا أفعل شيئاً عدا كتابة قصص ومقالات متفرقة، وأنا هنا التماساً لقليل من الراحة والاسترخاء. فأجاب أن آخر مرة قرأ لي فيها تعود ربما إلى عشر سنوات خلت، ولا يذكر الآن ما الذي قرأه. وقال: أنت قليل النشر. فوافقته، وسألني إن كنت أحمل كتاباً لي معي. أجبت نعم. معي كتاب في الفندق. أي فندق؟: ريتز. وا.. لقد ذهبت إليه؟ أجل، صورتك على المدخل، مدخل الفندق جذبتني إليه. جذبتني من كازا إلى هنا..(سمع كلماتي وتبسّم بهناءة طفل) وها أنا أود الاطمئنان عليك، بعد أن ابتسم الحظ لي وقابلتك بمحض الصدفة. أجاب أنه يتردد على مقهى

السنترال في سوق الداخل قبل الظهيرة، ليس بعيداً عن هنا، وكان بوسعك ملاقاتي هناك. ثم عاد ليُصرّح بأنه في وضع جيد جداً، وليس هناك ما يُقلق، وأن كثيرين يثيرون شائعات حول صحته وحياته الخاصة، وأنه لا يخشى أحداً لا بول بولز ولا زوجته جين (قال ذلك وهو يشيح بذراعه اليسرى)، وأنه لا يخاف الإفلاس ولا النُقّاد ولا الموت. وإن فرصاً أتيحت له للسفر والإقامة في أوروبا لكنه لن يفارق طنجة، وسوف يتابع ترجمات كتبه من هنا. وأنه لا يشكو سوى من آلام عابرة في المعدة وأخرى في الصدر. المهم أنها ليست سرطان، قال ضاحكاً وهو يكرع كأس النبيذ الثالثة ويتشبث بسيجارته. وأبلغته أنه بصحة جيدة، ووجهه يشعّ بالحيوية. لكنه لم يكتم دهشته قائلاً: أنت تبدو كبيراً.. أكبر سناً مني. تخيّلتك أصغر من هذا. قلت له إنه الهرم المبكر، رغم أني ازددتُ (وُلدت) بعد مولدك بثلاثة عشر عاماً. هكذا إذاً؟ قال مستغرباً ومضيفاً: نكبتكم هي السبب، هي التي تجعلك تبدو كبيراً.. مع أن محمود لا تظهر عليه النكبة، فهو يبدو مثل ممثل سينما. قال ذلك ضاحكاً، وقلت له متضايقاً إني أحب الشاعر وأعتز به، فأكمل دون أن يسمعني: أما نكبتي أنا فلها أسباب شخصية. لقد تجاوزتَها. قلت. نعم تجاوزتُها. لم أعد مشرداً يتبرأ أقرب الناس إليه، منه. أنا من يتبرأ ممن لا أريدهم. أصبحتُ بلا فخر وبلا

تواضع صاحب اسم. الأوروبيون يعرفونني أكثر من العرب.
في هذه الأثناء تقدم شاب فضولي وصافحه بحرارة، ثم صافحني بحرارة متكلفة، ولم يبادله سي محمد الكلام، ولم يُبالِ الشاب بتجاهله، وانصرف هانئاً إلى طاولة غير بعيدة يشغلها اثنان آخران، فيما واصل النادل الذهاب والمجيء حاملاً بأريحية ظاهرة الكؤوس والزجاجات وأطباق الشهيوات (المُقبّلات). أوضحت لسي محمد أن العرب يعرفونه جيداً ويقرأونه، فلم يثق كثيراً بكلامي واستنكر مُحاججاً: لديكم عقدة الخواجات، مرة كولن ولسون ومرة سارتر ومرة مورافيا ومرة الياباني الفلاني، والآن ماركيز وبورخيس، وغداً الله أعلم من. وسألني إن كنت أعمل في الصحافة، أجبته إني تقاعدت، وأكتفي بكتابة مقالات. فقال إنه لا يرغب بإجراء مقابلة معه. فاجأني، إذ لم يكن في نيتي إجراء مقابلة صحفية. قلت له: وددتُ السلام والاطمئنان عليك لا أكثر. وقال حسناً، إذاً ليست هناك مقابلة؟ فأجبت: كما تريد. فقال هكذا أفضل.. نهدر على راحتنا. وقال إن الصحفيين ينسبون إليه كلاماً لم يقله، وإنهم ، ليس كلهم، يضعون له صوراً غريبة لا يعرف من التقطها، وإنه لا يرغب بإجراء مقابلات إلا إذا طلبت المقابلة صحفية مثلاً.. حينها قد يختلف الأمر، قال ذلك دون نبرة سخرية، وإذا بنا برجل يتقدم فجأة يُحيّي بتلعثم ويمُدّ

نسخة من كتاب «الخبز الحافي» طالباً منه التوقيع عليها. يستغرب سي محمد ويسحب قلماً من الجيب الداخلي لجاكيته قائلاً: لسنا في حفل توقيع يا صاحبي. ويوقّع بسرعة بغير أن يسأل الرجل عن اسمه، وهذا لم يبادر إلى ذكر اسمه. يشكره الرجل ويأخذ كتابه على عجل. ثم يتناول كأسه الخامسة ويشرع بالحديث بالدارجة الخالصة حول أمور شتى، ويأتي على ذكر أشخاص كثيرين بأسمائهم الأولى لا أعرفهم، حتى فقدتُ قدرتي على الاستيعاب، مع اضطراري لأن أهز رأسي كل بضعة دقائق مجاراة له، وخلال ذلك أتأمل قسمات وجهه وعينيه اللامعتين الغائمتين وشاربيه الكثّين المبلولة أطرافهما، ورقبته المرتخية، كما دققت في أسنانه التي هجرت لونها الأبيض، حتى أني سرحتُ وتساءلت كالعادة: ماذا أفعل هنا، لم أنا هنا وليس في مكان آخر؟ وأني قد لا أنجح مهما حاولت في التواصل معه، وقد واصل حديثه وأخذ يطلق هذه المرة سيلاً من لعنات وشتائم، فأدركت أن مزاجه قد انحرف. ولم أجد ما أقوله سوى: ما عليك. ما عليك. دعهم، أنت بخير. ثم تلفّت حواليه بسرعة قائلاً بنفور: حقاً هذه الحانة ذكورية، أنا آتي إليها وفاء لذكريات قديمة فقط. اللعنة على الوفاء!. أكمِلْ كأسك أو دعك منها، من يُمضي السهرة في احتساء جعة لا ينتج أدباً جيداً. هيّا بنا إلى الفندق، ونهض. لم يأذن لي

بتسديد الحساب ولم يُسدّده هو، مشيراً إلى النادل بحركة التفاف دائرية من سبابته بما يفيد: لاحقاً، في ما بعد. وخرج متفادياً بنجاح الاصطدام بزبون عَبَر الباب لحظتها متعجلاً.

أخذ ينهب الطريق مسرعاً إلى الفندق. لم أتوقع سرعته هذه في المشي. إنه يكاد يُهرول. حاولتُ مواكبته فبدت هرولتي مضحكة في نظري، فكيف ستكون بأنظار السابلة الذين لم ينقطعوا عن عبور الشارع مع منتصف الليل. كانت تفصلنا مسافة تزيد قليلاً عن ٤٠٠ متر عن الفندق، هذا إن سلكتُ في طريقي الوجهة الصحيحة. واصل سي محمد هرولته وبدا في غير حاجة لبذل جهد كي يمشي مسرعاً، كما بدا خفيفاً نحيلاً مُجنّحاً كأنه على وشك الطيران، ولا بُد أنه في الأثناء قد نسي أمري. ولم يلبث أن اختفى كما هو متوقع عن ناظري. لم أقلق.. سنلتقي في مدخل الفندق، حدّثت نفسي. وأخذت أغُذ الخطى ساهماً، ومنفصلاً عن المرئيات أمامي ومن حولي، عن واجهات المحلات المغلقة والقليل منها المفتوحة التي اتخذت سمتاً مغلقاً ومتباعداً، وعن العابرين وقد بدوا رغم وطأة حضورهم أشباحاً حية..

وصلتُ متعباً بعض الشيء إذ سرتُ بأسرع من مشيي العادي. كان حارس الفندق مصطفى بمعطفه الأسود وبالبيريه الأسود وبشاربيه العريضين السوداوين يدخل ويخرج من الباب

كالعادة، ويُكلِّم هذا أو يُقبّل تلك. حيّيته على عجل. وسارعت لسؤال موظف الاستقبال واسمه مصطفى أيضاً (لكن دون علامات فارقة له) عن سي محمد شُـ.. متفاجئاً، ومُتفحّصاً ملامحي أشار متبسّماً إلى يساره، إلى الصورة الكبيرة ذات الإطار، وهو يُديم التحديق بي: ها هو. تجاهلت الصورة فقد ألِفتُ وجودها في موضعها، وشعرتُ بتيهٍ مفاجئ كشعور ممثلٍ يكتشف بعد فوات الأوان أنه خرج بعيداً جداً عن النص. طلبتُ بصوت متحشرج المفتاح وغادرت ببطء وشرود إلى غرفتي، وفي المصعد الذي لم يشاركني فيه أحد لحسن الحظ أخذت أحدّث نفسي بأن: ما توقعته قد حدث.. لقد حدث ما توقعته، وما إن أدرت المفتاح الثقيل وعبرتُ صمت غرفتي حتى صحوت مما يشبه غيبوبة، واستذكرتُ مُتهّيباً موعداً أبرمته مع الصديق البغوري لزيارة قبر سي محمد في اليوم الموالي (التالي)، ومُغالباً السويداء التي اعترتني عزمتُ على اغتنام الفرصة في الغد، ومفاتحة سي محمد بالسؤال: أين اختفيت ليلة البارحة يا صاحبي؟.

محمود الريماوي - سيرة ذاتية

- محمود الريماوي (٦٦ عاماً) قاص وروائي أردني / فلسطيني ، يقيم في عمّان وقد أمضى شطراً من حياته في بيروت والكويت، مزاولاً مهنة الصحافة، التي ما زال ينشط فيها بعد تقاعده كاتباً ومعلقاً سياسياً في صحف عربية. أصدر ١٣ مجموعة قصصية ابتداء من العام ١٩٧٢ ومن كتبه القصصية: كوكب تفاح وأملاح، شجرة العائلة ، ضرب بطيء على طبل صغير، غرباء ، الوديعة، فرق التوقيت ، ورجوع الطائر ، وعودة عرار. كما صدرت له روايتان هما «من يؤنس السيدة» التي وصلت الى القائمة الطويلة في جائزة البوكر العربية عام ٢٠١٠ و«حلم حقيقي» التي صنفتها جائزة كيودي عام ٢٠١٣ بين أهم ٣٠ كتاباً عربياً ابداعياً. كما صدر له كتابا نصوص هما «أخوة وحيدون» و«كل ما في الأمر».
- تتسم كتابة الريماوي السردية بطابع إنساني يجمع بين التجريب والواقعية، وبأسلوب مفعم بروح المفارقة والذائقة الشعرية.

المحتويات

إهداء	٨
قصص مراكش:	٩
عمَ تبحث في مراكش	
نصف دقيقة	٢٠
فتحُ سيرة ملهى مغلق	٢٦
أشجار لا تبوح بالأسرار	٤٠
ما فعله السيد خورخي	٥٠
ليلة بيضاء	٥٥
تلك الحافلة	
قصص أخرى:	٧٩
لحظة خاطفة	٨٠
السرير والسريرة	٨٨
صمت الحباري	٩٢
مزيد من الرسائل	٩٧
حياة رخيصة	
السيد والعبد	
ظهور واختفاء سي محمد	١٠٣
محمود الريماوي - سيرة ذاتية	

كتاب «دبي الثقافية»
سلسلة دورية تصدر عن
مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣

١٠- «السماء تخبّئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد.. و... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦- «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» - ٢٠٠٨

١٧- «ليس الماء وحده جواباً عن العطش» - أدونيس - أكتوبر ٢٠٠٨

١٨- «قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء» - أحمد عبدالمعطي حجازي - نوفمبر - ٢٠٠٨

١٩- «مدارات في الثقافة والأدب» - عبد العزيز المقالح - ديسمبر - ٢٠٠٨

٢٠ - «من أنت أيها الملاك» - إبراهيم الكوني - يناير - ٢٠٠٩

٢١- «النقد الأدبي والهوية الثقافية» جابر عصفور- فبراير - ٢٠٠٩

٢٢- «قصائد من شعراء جائزة نوبل» اختارها وترجمها د.شهاب غانم - مارس- ٢٠٠٩

٢٣- «الأغاريد والعناقيد» - سيف محمد المري - أبريل - ٢٠٠٩

٢٤- «رواية الحرب اللبنانية.. مدخل ونماذج» - عبده وازن - مايو- ٢٠٠٩

٢٥- «هنا بغداد» - كريم العراقي - يونيو - ٢٠٠٩

٢٦- «أراجيح تغنّي للأطفال» - سليمان العيسى - يوليو - ٢٠٠٩

٢٧- «الحضارات الأولى - الأصول.. والأساطير» - تأليف/ غلين دانيال، ترجمة/ سعيد الغانمي - أغسطس - ٢٠٠٩

٢٨- «محمود درويش حالة شعرية» - صلاح فضل - سبتمبر - ٢٠٠٩

٢٩- «أنثى السراب (سْكْرِيبْتُوزْيُومْ)» - واسيني الاعرج - أكتوبر - ٢٠٠٩

٣٠- «حيثُ السحرة ينادون بعضهم بأسماء مُستعارة» سيف الرحبي نوفمبر - ٢٠٠٩

٣١- «في غيبوبة الذكرى» (دراسات في قصيدة الحداثة) - د. حاتم الصكر - ديسمبر - ٢٠٠٩

٣٢- «وليم شكسبير (سونيتات)» - د. كمال أبو ديب - يناير - ٢٠١٠

٣٣- «العمارة الإسلامية (من الصين إلى الأندلس)» - د. خالد عزب - فبراير - ٠ ٢٠

٣٤ - «نحو وعي ثقافي جديد» - د. عبد السلام المسدّي - مارس - ٢٠١٠

٣٥ - «لكي ترسم صورة طائر وقصائد أخرى من الشرق والغرب» اختارها وترجمها د. شهاب غانم - أبريل - ٢٠١٠

٣٦ – «السرْد والكِتـاب» – محمد خضيّر – مايو – ٢٠١٠

٣٧ – «طـائـر الشعـر» – سالم الزمر – يونيو – ٢٠١٠

٣٨ – «أنا والسوريالية» – ترجمة: أشرف أبو اليزيد – يوليو – ٢٠١٠

٣٩ – «الحراك الاجتماعي الكويتي في القصة القصيرة» – د. فاطمة يوسف العلي – أغسطس – ٢٠ ٠

٤٠ – «فضاءٌ لغبار الطّلع»– أدونيس– سبتمبر – ٢٠ ٠

٤١ – «حجر السرائر»– نبيل سليمان – أكتوبر – ٢٠١٠

٤٢ – «حَبَّات و محَبَّات» – المنصف المزغني – نوفمبر – ٢٠ ٠

٤٣ – «الخطاب الشعري الحديث في الإمارات» – (الجزء الأول) – د. صالح هويدي – ديسمبر – ٢٠١٠

٤٤ –«بابل الشعر» – أحمد عبدالمعطي حجازي – يناير ٢٠١١

٤٥ –«مرايا النخل والصحراء» – د.عبد العزيز المقالح – فبراير ٢٠١١

٤٦ –«رغبات منتصف الحبّ» – زاهي وهبي – مارس ٢٠١١

٤٧ –«المحكمـة» – كريم العراقي – مارس ٢٠١١

٤٨ –«منفى اللغة» – (حوارات مع الأدباء الفرانكوفونيين) – شاكر نوري – أبريل ٢٠١١

٤٩ –«الرواية العربية ورهان التجدد» – د. محمد برادة – مايو ٢٠١١

٥٠ –«مئة قصيدة وقصيدة» – د. شهاب غانم – يونيو ٢٠١١

٥١ –«حُلمٌ حقيقي» – محمود الريماوي – يوليو ٢٠١١

٥٢ –«قصائد في الذاكرة» – قراءات استعادية لنصوص شعرية – د.حاتم الصكر – أغسطس ٢٠١١

٥٣ –«جنوب غرب طروادة، جنوب شرق قرطاجة» – إبراهيم الكوني – سبتمبر ٢٠١١

٥٤ –«الفاتنـــة» – جمال بن حويرب – أكتوبر ٢٠١١

٥٥ –«الرواية والاستنارة» – د. جابر عصفور – نوفمبر ٢٠١١

٥٦ –«دونَ أنْ أرتَوي» – (قصائد مختارة) – خُلود المُعلا – ديسمبر ٢٠١١

٥٧ –«في الشعر الإفريقي المعاصر» – (جيل الرواد نموذجاً) – تقديم وترجمة د. حسن الغُرفي – يناير ٢٠١٢

٥٨ –«ينام على الشجر الأخضر الطير» – محمّد علي شمس الدين – فبراير ٢٠١٢

٥٩ –«أصابعُ لُوليتَا» – واسيني الأعرج – مارس ٢٠١٢

٦٠ –«أمين معلوف.. العابر التخوم» – بقلم/ عبده وازن – أبريل ٢٠١٢

٦١ –«رُباعيّات الرّاوي» – شعر/ حارث طه الرّاوي – أبريل ٢٠١٢

٦٢ –«الاستشراق وسحر حضارة الشرق» – د. ايناس حسني – مايو ٢٠١٢

٦٣ –رواية «فرسان الأحلام القتيلة» – إبراهيم الكوني – يونيو ٢٠١٢

٦٤ –«موريتانيا موطن الشعر والفصاحة» – موفق عبدالفتاح العاني – يوليو ٢٠١٢

٦٥ – «من أوراق صحفي عراقي» – محسن حسين – يوليو ٢٠١٢

٦٦ – «هذا العالم مجرد مسرح»، قصائد من الشرق والغرب – اختارها وترجمها: د شهاب غانم – أغسطس ٢٠١٢

٦٧ – «ألفُ حياةٍ وحياة»، للشاعر الكوري: كُو أوْن – ترجمة: أشرف أبو اليزيد – أغسطس ٢٠١٢

٦٨ – «فضاء التأويل» – د. عبد السّلام المسدّي – سبتمبر ٢٠١٢

٦٩ – «الصعود إلى الجبل الأخضر» – سيف الرحبي – أكتوبر ٢٠١٢

٧٠ – «الفراشة» – بروين حبيب – أكتوبر ٢٠١٢

٧١ – «شؤون وقضايا مسرحية» – فرحان بلبل – نوفمبر ٢٠١٢

٧٢ – «رحلة في بلاد ماركيز» – أمجد ناصر – نوفمبر ٢٠١٢

٧٣ – «هواجس الرواية الخليجية» – د. الرشيد بوشعير – ديسمبر ٢٠١٢

٧٤ – «أجراس الحروف» – سيف المري – يناير ٢٠١٣

٧٥ – «في النقد التكاملي» – د. إبراهيم محمد الوحش – يناير ٢٠١٣

٧٦ – رواية «الظل الأبيض» (تجربة في الاستنارة) – عادل خزام – فبراير ٢٠١٣

٧٧ – السّردُ و أسئلة الكينونة أو «التنزُّهُ في غابة السَّرد» – حاتم بن التهامي الفطناسي – فبراير ٢٠١٣

٧٨ – رواية «مدائن الأرجوان» – نبيل سليمان – مارس ٢٠١٣

٧٩ – «مختارات من قصائد جلال الدين الرومي» – ترجمة: تحسين عبد الجبار إسماعيل – أبريل ٢٠١٣

٨٠ – «مفاتيح لزنزانة الروح» – محمد علي الخضور – أبريل ٢٠١٣

٨١ – «لا شيء يشبهنا معاً» – عائشة محمد الشيخ – أبريل ٢٠١٣
٨٢ – «كبرياء جريح» – قصائد مختارة – تأليف: مارينا تسفيتاييفا – ترجمة وإعداد: إبراهيم استنبولي – مايو ٢٠١٣
٨٣ – «كتابات النور اللحمر» – نصوص – النور أحمد علي – مايو ٢٠١٣
٨٤ – «رُسُل الموت» – نص مسرحي – هبة فاروق – مايو ٢٠١٣
٨٥ – «مملكة الفراشة» – واسيني الأعرج – يونيو ٢٠١٣
٨٦ – «عطب الرّوح» – زينب الأعوج – يونيو ٢٠١٣
٨٧ – «يومُ قابيل» – نوري الجرّاح – يوليو ٢٠١٣
٨٨ – «هلاوس» – نهى محمود – يوليو ٢٠١٣
٨٩ – «ضد الغياب» – عبد الصمد بن شريف – أغسطس ٢٠١٣
٩٠ – «حكايات مدن بين الهامش والمتن» – جمال حيدر – أغسطس ٢٠١٣
٩١ – «مآذن وأبراج» – حمود نوفل – سبتمبر ٢٠١٣
٩٢ – «بيضة على الشاطئ» – شريف صالح – سبتمبر ٢٠١٣
٩٣ – «سوانح» – كريم معتوق – أكتوبر ٢٠١٣
٩٤ – «زوجة الملح» – يوسف أبو لوز – أكتوبر ٢٠١٣
٩٥ – «المرأة وعالم نجيب محفوظ» – عبد الإله عبد القادر – نوفمبر ٢٠١٣
٩٦ – «في مديح الحب» – حمدة خميس – نوفمبر ٢٠١٣
٩٧ – «من الشرق الى الغرب (يوميّات)» – سيف الرحبي – ديسمبر ٢٠١٣
٩٨ – «نصف كأس من الأمل» – شعر / أحمد العجمي – ديسمبر ٢٠١٣
٩٩ – «بوابات المسرح» – محمود أبو العباس – يناير ٢٠١٤
١٠٠ – «مختارات قصصية لأدباء جائزة نوبل» – ترجمة: عبدالسلام إبراهيم – يناير ٢٠١٤
١٠١ – «السيف والمرآة – رحلة في جزر الواق واق» – علي كنعان – فبراير ٢٠١٤
١٠٢ – «التأسيس والتحديث في تيارات المسرح العربي الحديث» – د.عبدالكريم برشيد – فبراير ٢٠١٤
١٠٣ – «طرب وعُرب» – د. معلا غانم – مارس ٢٠١٤

١٠٤ – «الحياة بعين ثالثة» – عادل خزام – أبريل ٢٠١٤

١٠٥ – «(فرانكفونيون ومصريون) مختارات من القصيدة الفرنسية في مصر»
ترجمة وإعداد: أحمد عثمان – أبريل ٢٠١٤

١٠٦ – (جداريات الشام «نمنوما») – رواية – نبيل سليمان – مايو ٢٠١٤

١٠٧ – «مطر الليل وقصائد من الشرق والغرب» – اختارها وترجمها إلى العربية
شهاب غانم – يونيو ٢٠١٤

١٠٨ – «بوق العاج» – شعر – صلاح أحمد إبراهيم – يونيو ٢٠١٤

١٠٩ – (هديرُ السَّرد الخمايسي في «السبنسة») – مصطفى عبد الله – يوليو ٢٠١٤

١١٠ – «على جناح الهوى المرأة والإبداع» – ظبية خميس – يوليو ٢٠١٤

١١١ – «هكذا تكلّمت الأغاني» – د. نجوة قصاب حسن – أغسطس ٢٠١٤

١١٢ – «الجاحظية بيتُنا (الطاهر وطار نضال في كل الاتجاهات)»
– محمد حسين طلبي – أغسطس ٢٠١٤

١١٣ – «على أبواب بغداد» – رواية / قاسم حول – سبتمبر ٢٠١٤

١١٤ – «أيتها الفراشة.. يا اسم حبيبتي» – شعر / إبراهيم المصري – سبتمبر ٢٠١٤

١١٥ – «الرحلة المغربية إلى بلاد الأرجنتين وتشيلي البهية» – أحمد المديني –
أكتوبر ٢٠١٤

١١٦ – «الهُوية والمنهجية بين الإبداع والتهافت» – محمد وردي – أكتوبر ٢٠١٤

١١٧ – «سيرةُ المُنْتهى – عِشْتُها... كمَا اشْتهَتْنِي» – واسيني الأعرج – نوفمبر ٢٠١٤

١١٨ – «ظاهرة العنف في الخطاب الروائي العربي» –عزت عمر – ديسمبر ٢٠١٤

١١٩ – «عمّ تبحث في مراكش» (قصص) – محمود الريماوي – يناير ٢٠١٥

١٢٠ – «عن الحب والثأر وأشياء أخرى» (قصص من الأدب العالمي) – ترجمة:
سنية سلمان – يناير ٢٠١٥

ملاحظة:

سلسلة كتاب «دبي الثقافية» كانت تصدر أولاً تحت اسم كتاب «الصدى» ثم أصدر رئيس التحرير الأستاذ سيف المري قراراً بتغيير اسم السلسلة بعد صدور مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤؛ ليصبح اسمها «كتاب دبي الثقافية».

كتـــاب دبـــي الثقافيـــة

يصدر أول كل شهر ويوزع مجانا مع مجـــلة دبي الثقافية

رئيس التحرير : سيف المـري

الكتــاب المقبــل

فبراير 2015

البوح اللطيف

شذرات

عبدالسلام المسدي

بدأتُ مع البحر

شعر

محمد عبدالله البريكي

الرقم الدولي
ISBN978-9948-494-77-5

محمود الريماوي

119

يصدر أول كل شهر ويوزع
مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع

ها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار للكاتب والقاص محمود الريماوي، واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاريعنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرقابة المفضية إلى الملل، ولن نألو جهداً في إضافة المزيد.

سيف المري